الوطن والمواطنة

(رؤية موضوعية)

اللواء/ عبدالرحمن الياسين

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م

مكتبة الرشد – ناشرون

المملكة العربية السعودية – الرياض

الإدارة : شارع الأمير محمد بن عبد الرحمن (طريق الحجاز)

ص . ب ١٧٥٢٢الرياض ١١٤٩٤ هاتف ٤٥٩٣٤٥١ – فاكس ٤٥٧٣٣٨١

المركز الرئيسي : الدائري الغربي – بين مخرجي ٢٧ و٢٨ هاتف ٤٣٢٩٣٣٢

Email: rushd@rushd.com

Website : www.rushd.com

فروع المكتبة داخل المملكة

الرياض : فرع طريق عثمان بن عفان تقاطع مخرج ٧ مع مخرج ٩

الرياض : فرع الدائرى الشرقى هاتف ٤٩٧١١٩٩ فاكس ٤٩٦١٥٩٩

فرع مكة المكرمة : شارع الطائف هاتف ٥٥٨٥٤٠١ فاكس ٥٥٨٣٥٠٦

فرع المدينة المنورة : شارع أبي ذر الغفارى هاتف ٨٣٤٠٦٠٠ فاكس ٨٣٨٣٤٢٧

فرع جدة : مقابل ميدان الطائرة هاتف ٦٧٧٦٣٣١ فاكس ٦٧٧٦٣٥٤

فرع القصيم : بريدة – طريق المدينة هاتف ٣٢٤٢٢١٤ فاكس ٣٢٤١٣٥٨

فرع ابها : شارع الملك فيصل هاتف ٣٢١٧٣٠٧ فاكس ٢٢٤٢٤٠٢

فرع الدمام : شارع الخزان هاتف ٨١٥٠٥٥٦ فاكس ٨٤١٨٤٧٣

فرع حائل : هاتف ٥٣٢٢٢٤٦ فاكس ٥٦٦٢٢٤٦

فرع الإحساء : هاتف ٥٨١٣٠٢٨ فاكس ٥٨١٣١١٥

فرع : تبوك هاتف ٤٢٤١٦٤٠ فاكس ٤٢٣٨٩٢٧

مكاتبنا بالخارج

القاهرة ك مدينة نصر : هاتف ٢٧٤٤٦٠٥- موبايل ٠١٠١٦٢٢٥٣

بيروت : بئر حسن هاتف ٨٥٨٥٠١/٠١ موبايل ٠٣٥٥٤٣٥٣ فاكس ٨٥٨٥٠٢/٠١

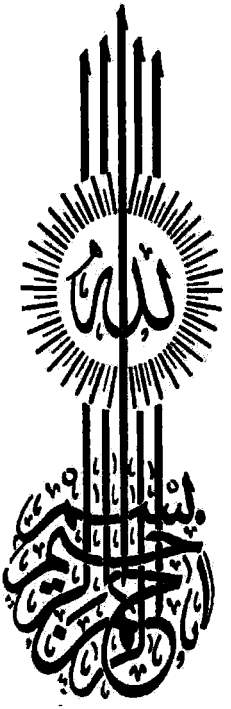
بسم الله الرحمن الرحيم

الإهـداء

إلى أصالة وطن – ووطن أصالة.

إلى الوطن بشموخ قوامه وسمو شرعته.

إلى الوطن في كل ربع له مشيد يشيده. في كل شبر له بانٍ يبنيه.

الإهداء موصول:

إلى كل مواطن فوق ذري ثراه يعبر رؤاه.

إلى كل ساعد يصنع قواه. يصون وحدة بقاه.

إلى الوطن – وأهل الوطن.

المؤلف

المقدمة

ارتبط الإنسان منذ القدم بالمكان الذي ولد أو نشأ على تربته ارتباطاً مدنياً محضاً عاقداً حياته بحياة أرضه متعصباً لجماعته. يفخر بها كما يخفر بهم يقاسم أفرادها مشاعر مودتها والاعتزاز بها يعتنق نهجها يشعر كل فرد أنه معني بها وبمن يعيش عليها يرخص نفسه في سبيل الذود عنها لا يتوانى بالمدافعة عن حياضها وحمل همها يلوذ بحماها حريصاً على متانة رباطها ليبقى عزيزاً جانبها مهابة أرضها.

ومع ظهور الدولة القطرية الحديثة بمفهومها السياسي تداخل مع المفهوم العاطفي وآذن بنشوء ارتباط مزدوج مازجاً تبعيتين في تبعية واحدة، (عامل السياسة). وعامل (الارتباط بالأرض) مكوناً كياناً واحداً رتب تبعية خاصة تفرضها على كل من يقطن أرض الدولة. فأصبح الإنسان مرتبطاً بدولته ارتباطاً سياسياً. مكانياً تخلع عليه نمط حياتي موحد. بهذا الشكل أخذ مفهوم الدولة حداً سياسياً اقتصر على أولئك الذين يقطنون نطاقها الجغرافي خاضعين لسلطانها اسبغت عليهم هويتها بحلة اندماجية رعوية (اندماج ديموغرافي) مواطنين تابعين لإرادتها مسموتين بسماتها تهتم بشؤون حياتهم وتنظم

أمور تقلباتهم في موطنهم وتظلهم تحت مظلتها ترعاهم رعاية شرعية وقانونية توفر لهم أمان معاشهم واستقرار أمنهم. فكان ارتباطاً تبعياً للوطن يستحوذ على مشاعر الإنسان مكوناً داخله مساحة أوسع من كونه مجرد قطعة أرض بل نسق وجداني وسياق اجتماعي مترابط المصالح وغايات عظام لن تتحصل في سواه ومعايش لا تتسنى للإنسان إلا مع قومه تطيب حياته وسطهم يتوالى معهم موالاة تواطن.

هذه الوقائع رسمت واقعاً حميماً يسلم الجميع أن الوطن غاية بقاء وساحة التقاء تسكن فيه النفوس. يخلصون له إخلاص لامراء فيه وإجماع لا مزايدة عليه. تلك هي قصة وطن وإنسان مفطور بأرضه عملية «تمثيل جيوسياسية تبادلي» تفاعل إيجابي دؤوب أخرجت له خيراتها وبذل هو ما وسعه الجهد إعمار لها مستزرعاً ترتيبها ومستثمراً مادتها ومخزون مكنوناتها، استذهن ذهنه وأشعل قدرات عقله مستصخراً طاقاتها متنعماً نعيم منافعها.

إنها قصة وطن ومواطن فكيف تقرؤها:

- إن شئت تقرأها رواية فهي عاطفة الوطن.
- وإن رأيت ترويها قصة فهي حب الوطن.

- وإن نظرت إليها أسطورة فهي ملحمة الوطن.

فمن كينونة الأرض بما حوت والنفس بما اتصفت والسماء وما أنوءت والبحار وما استودعت ونعم الله بما استكثرت. تلكم النعم التي أظهرها نعمة الإسلام عقيدة الخالق الديان. أو صمت الإنسان بوصم أرضه. من كل تلك التصنيفات والتوصيفات متفردة أو مجتمعة وشعائرها العقدية تشكل شعاراً غالباً مطادة أن الدين لله والوطن لعباد الله الذي استخلفهم فيه، فالولاء له سبحانه فهو ولي عباده ومن الولاية الإلهية تنبثق ولاية المؤمنين بعضهم لبعض.

هذه الولاية التي منحها الله لعباده انسحبت من العباد إلى أرض الوطن باعتبارها موضع موالاة بعضهم يجدر ولايتها كونها مقراً للعبادة وأداء فرائض الله دون منازعة مصانة بالولاية يذكر فيها اسمه ويعلو ذكره..

فكيف نوالي الوطن؟

المؤلف

القسم الأول

موالاة الوطن

موالاة الوطن

تقوم الولاية أساساً بالتسليم لمن يتولى أمرك والتبعية لمن تتبع هديه وتسترشد بتعاليمه، قال تعالى: ﴿ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾ ﴾[1]. وقال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾ ﴾[2].

فمن هداه الله فهو وليه ناصره ومؤيده ومن لم يهتدي فلا هادي له. فالولاية في الإسلام قائمة على عماد العبودية للخالق وهو عهد في ذمة المسلم بالولاء لله تعبداً ولدينه مطبقاً ولرسوله ﷺ متبعاً وهو ما ينسحب تبعاً إلى ولي أمر المسلمين باعتباره ظل الله في الأرض قيماً عليها مقيماً شرع الله وسنة رسوله ﷺ في حدودها فله ولاء طاعة ، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾[3]. وعلى هذا تقوم الولاية على منهج شرع الله وهدي رسوله ﷺ . التي من معانيها أنها السلطان أي سلطان الله في الأرض المتمثل فيمن ولي أمر المسلمين يوزعهم

(١) سورة الكهف، الآية: ٤٤.

(٢) سورة محمد، الآية: ١١.

(٣) سورة النساء، الآية: ٥٩.

للاحتكام لكتاب الله المنزل تسليماً بما أمر وخضوعاً لما نهى وزجر.

اختزلها القول المأثور للخليفة الثالث عثمان بن عفان – رضي الله عنه – : أن الله «يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن» أي الحاكم الذي يتولى تنفيذ أوامر الله حيث تتركز فيه سلطة ضبط حركة العباد وتنظيم نشاطاتهم وحماية أمنهم بموجب ما أنزل الله وأوصى به رسول الهدى راسماً سياسة تنظيمية تكفل للفرد حياة كريمة وعيشاً هادئاً وبهذا ينطوي المعنى على أن الولاية تبدأ بالولاء لله تعالى وتنصرف إلى رسوله ﷺ ممتدة إلى الوطن الذي يرعاه ولي الأمر وهي ولاية شرعية قانونية أخلاقية ملزمة للفرد والجماعة فحق الوطن أن يواليه أهله ومن يعيش عليه وينعم بخيراته.

وعلى هذا يكون الولاء أولاً وأخيراً لله في كل ما يتعلق بحياتنا في الدنيا وما تؤول إليه في آخرتنا فهو يتولانا برعايته ويكلأنا بعنايته ندين له بالطاعة ونتقرب إليه بالعبادة رغباً ورهباً في ظل شريعته يتعايش المؤمنون على أرضه التي استخلفهم فيها

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [1]، تشكلت على سطحها علاقاتهم على أساس من المساواة والعدل والإنصاف شركاء متساوون في الحقوق والواجبات يستوجب موالاتها باعتبارها مكاناً تتحقق فيه عبودية الإنسان لخالقه دون خشية تعيق حركته أو رعب يعطل منفعته ليشيدها عمارة ويبنيها قوامة لتحقق غاية الله من استخلاف ذرية آدم يشد بعضهم أزر بعض كما بين المصطفى ﷺ في الحديث: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً» [2]، فمآزرة المؤمنين لبعضهم يقوي ارتباطهم بالمكان الذي يقطنونه يسترعون رعوية الأرض التي تضمهم تحت جناحها وتلم جمعهم تحت لوائها.

فالولاية اسم لفعل تولى يتولى ويعني التسليم لمن يتولى أمرك ويقوم برعاية شؤون حياتك تكيِّفها أنظمة وتقننها قوانين تلائم بين حقوق للفرد وواجبات عليه يخضع لها المجموع مقرين بها في منظومة طوعية يطوعون أنفسهم لاحترامها وينخرطون فيها انخراطاً مختاراً.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٣٠.

(٢) صحيح البخاري.

يندمج في حيثياته الكل اندماجاً ديمغورافياً يلبي استحقاق الوطن ومتطلبات البقاء تجسدها حالة تكافل من الطرف (المواطن) إلى الوسط (المجموع) تكافلاً متضامناً مؤسساً على مبدأ التسليم بصيغة ولائية مؤداها:

- أن الولاء ينبثق من منهجية إيمانية لله ورسوله ﷺ ومنها إلى الوطن أرض الاستخلاف الرباني لتتحقق مشيئة الخالق لعبادته عليها يقول تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾[1]. فبحكم أن الولاء لخالق الأرض التي خلقها لعبادته عليها فإن من موجبات الولاء المحافظة عليها فيواليها مولاه رعاية يلتزم بها معناً ويفعلها قولاً ويؤكدها عملاً. استجابة لمقتضى الغرض الذي خلق الإنسان من أجله وهو العبادة على الأرض التي يقطنها فهو ولاء خصوصية يختص بها أرض الوطن.
- الولاء عقد ولائي تلازمي بين وطن ومواطن وتبرره فالأرض مكان تعبد والإنسان مكان تكليف ثنائية

(١) سورة الذاريات، الآية: ٥٦.

تلازميةً مواطنيه حاكمية لأن الشريعة حاكمة تحكم المكلفين.

- ولاء أدبي مستمد من موروث القيم وحميد الأخلاق وثقافة وتاريخ، أوردت في الإنسان ولاءً لأرضه مؤسساً بأصوله وامتداد نسله فكان سبباً لاستحقاق الوطن لها.

- موالاة الوطن صبغة آدمية مصبوغ بها الآدمي بصبغة الأرض. قال تعالى: ﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾[1]. فمن صور الوضعية الإيمانية والتلازمية المواطنية والقيمية الأخلاقية والصيغة الآدمية.

استحكمت الولاية لله طاعة ولرسوله إتباعاً مما استتبع موالاة الوطن بوصفه مكان الاستخلاف الإلهي الذي اختص الإنسان به ليعبد ربه في جو من الأمان الروحي باعتباراتها العقدية يواليها العبد موالاة شرعية أخلاقية دون إخلال بها أو الخروج عن مصوغاتها المشروعة.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٣٨.

موالاة الوطن إملاء استخلاف الإنسان في الأرض فالمحافظة عليها واجب والذود عنها ملزم بهذه المترابطات استحق الوطن ولاءه في سُلمَّ الاستحقاقات أفرغت تأسست في صيغة تعاقد ضمني يوالي البعض بعضهم موالاة تراحم وتآزر وتآخي.

كيف لا: إنه الوطن الذي يعيشون على أرضه يتنفسون هواه يلتحفون سماه يكتسون نسيجه يقتاتون خيراته نبتت به مادة أجسادهم وبنور الله تنورت فيه عقولهم ونمت طموحات مستقبلهم يتعاونون على البر والتقوى. تلك عوامل أذكت موالاته.

إذكاء موالاة الوطن:

كثيرة هي نعم الله التي أنعم بها على عباده أعظمها نعمة الإسلام التي كفلت الحقوق وأبانت الواجبات ليمضي الإنسان حاله مستقراً سخرت ملكوت الأرض والسماء لراحته وهدوء باله سيق رزقه وأمان معاشه فاستوجب مقابلة النعم بالشكر فبالشكر تدوم النعم، فالشكر لله الذي أنعم وتفضل بكرمه ومن موجبات الشكر. لزوم الجماعة فلزوم الجماعة هنا كناية عن ملازمة أهل الوطن في المنشط والمكره تؤدى الواجبات نحوه فلا

يكفي رفع شعارات أو رص كلمات أو مزايدات لفظية مزينة وتعليق لافتات مزخرفة بعبارات منمقة بالولاء مجوفة من داخلها مفرغة من معانيها خالية من مدلولاتها. فموالاة الوطن مضمونة بحقه الشرعي والأدبي.

فمن لم يعرف قيمة الموالاة للوطن كمن لا وطن له – فلا همة تهمه أو حافز يحفزه أو ذمة ولائية توزعه. فالوطن الذي لا يواليه أبناؤه ضعيف جانبه خائرة قواه لا تتشكل في بنيته هياكل منعة تدفع به إلى آفاق الرقي والتقدم.

أن أي فكر مجتمعي لا يقيم وزناً لجانب الولاء وإذكاء مراميه لهو فكر مهزوم مهزوز. يتأثر سريعاً بهبوب رياح المتغيرات فلا يقوى على صدها.

لقد أثبتت الحقائق في المجال الاجتماعي والاقتصادي والسياسي التي تغذت بفكر الولاء نجاعتها في امتصاص مستجدات الأحداث عن تمريرها على محك وحدة الكلمة تحت لواء الولاية لله ولرسوله ثم للوطن لتعبر بهم إلى بر الأمان. بعكس الشعوب التي انتشرت فيها الانقسامات بسبب ضعف الولاء فقد فشلت في لَم شملها الوطني بتداعي كتلة صفها تفرقت شيعاً وأحزاباً حتى طحنتها الفرقة فما تلبث أن تعصف

بها الطائفية وتمزقها الأهواء وتذروها رياح المنازعات والمصالح الضيقة مستسلمة لنداءات الأوهام ذات المنافع الخاصة خلخلت التوازنات في الحياة العامة ما كان له أن يكون لولا صرف الولاء في غير محله فبدلاً من الولاء لمن يستحق الولاء انصرف إلى ولاءات متشرذمة لا تغني عن الحق شيئاً.

وهنا تبرز حقيقة أن الولاء للوطن ظل نظاماً تلتف حول مركزه المجاميع لردم ميول الرغبات المتفردة على حساب وحدة الوطن. حتى وإن وجد اختلاف في وجهات النظر واحتدت المناقشات فهو اختلاف لا قبح فيه بل هو طبيعة بشرية، قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾[1]. فلا يفسد جو الاختلاف الود بينهم للوصول إلى أصوب رؤية تقارب بين الاختلافات وتجلي الغشاوات وتنقي الشوائب إذا أدير بروح موالاة الوطن فيضحى أداة تقويم وإصلاح ذات البين وحسم القضايا في رحاب حوار وطني لا مصلحة له إلا الوطن.

أما إذا غاب الولاء فسيحتدم الاختلاف ويتحول إلى

(١) سورة هود، الآية: ١١٨-١١٩.

خلاف تطغى عليه جدليات تتطور إلى خصومات فمنازعات وانقسامات خلافية تذهب كل فرقة بما ترى وتتشبث كل شريحة بما تهوى ينشأ في ساحتها صراع وصنوف من التأليب وتأجيج عواطف الضد فيكيد هذا مكيدة لذاك ويذيق بعضهم بأس بعض فتتعصب كل جماعة بجماعتها وينحاز كل فريق لفريقه تتجاذبهم نزعات فئوية وتتنازعهم قناعات متعارضة تكرس الفرقة وتتسع فيها الهوة.

فإذكاء الولاء هو صمام الأمان ضد التفرق ومرشد إلى التجمع يلاذ به إذا بدت بوادر فتنه وملامح بغضاء تشق الصفوف أو إن طاف بالأمة طائف يموج به جمعها عندها ينتصب الولاء سارية فوق رؤوسهم ينصب الفرقاء عليها صدق ولائهم مرجعية ولائية يخضع لرايتها الجميع يلتفون حوله ولا يخرجون عن طوعه دون تشبث بفكر أو تعصب لفئة أو انحياز لجماعة حوارهم المصلحة تحت سقف الولاء لله ولرسوله ﷺ ثم للوطن وأهله.

مثل هؤلاء لا ينوء بهم وطنهم أو تشرخ وحدتهم يقصون خلافاتهم جانباً فيأتي حوارهم مثمراً متحرراً من المقاصد الضيقة والأغراض المغلقة مبرأة من الذاتية يترتعون فوق

نكاءات الجراحات الفئوية.

بمثل هذه الروح أقام الملك المؤسس عبدالعزيز – طيب الله ثراه – دولته استجمعت في حوضها مجاميع الوطن مستظلين بولاية الله فتبعه شعبه مباركين مهللين بوحدة الجمع ونبذاً للفرقة فقدم نموذجاً حضارياً متميزاً لدولة حديثة توحدت أطرافها مع وسطها ثقافة ولائية توافقت فيها الإرادات الجماعية تحت راية التوحيد في بلد موقناً بالولاء لله الواحد والرسول الخاتم ثم الوطن الموحد ملاذاً وسكناً متراصاً كيانه شامخاً صرحه.

إن وحدة الولاء لا يجب التفريط فيها فلا تخضع لمقادير النسب فهي مقدار واحد عند الكبير كما هي عند الصغير عند الموظف أو ذاك الذي ينتظر الوظيفة عند الطالب والمعلم والمسؤول والمسؤول عنه فالكل في ولاء الوطن سواء. هم لنصرته جنود وللدفاع عنه صفوف يقدمون له الغالي والرخيص لأنه الوطن الذي ينعمون فيه بنعم الله الظاهرة والباطنة على أرضه، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ

نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾[1].

- فهل مجرد السكن يكفي كمؤشر للولاء؟
- وهل الحديث الحماسي دليل على الولاء؟
- هل المظاهر الاحتفالية تعبر عن ولاء؟

الولاء مناصرة وتأييد يترجمها الإنسان مرجعية لا مفارقة أو محادة لها لا يتوارى شعارها أو يرتخي وثاقها أو يضمر حماسها. يعتصم منها بحبل الله المتين ليوالي موطنه كقوة دفع مركزي تدفع بمكونات الوطن إلى شعور وحدوي في كلا الحالين فرحاً كان أو كدراً.

وعلى هذا يمكن أن تصنف الولاية بحسب مقاصدها إلى:

- قصد شرعي لله من قبل ومن بعد ولرسوله ﷺ.
- قصد وطني يستمد صفته من القصد الشرعي بالطاعة لولي الأمر الذي يرعى حق الله فموالاته تتضمن موالاة الوطن.
- قصد أخلاقي يستلهم قيم وأعراف موسومة بثقافة

(١) سورة لقمان، الآية: ٢٠.

وتاريخ.

تلك المقاصد مجتمعة أو متفردة مرتكزها الوطن الذي يوجه فيه المواطن ولاءه بجسده اشتغالاً بهمومه يتقاسمه أبناؤه بسوية متساوية. فالوطن الذي تقيم فيه شرع الله يؤتمر فيه بأمره وينتهى فيه بنهيه يمارس أفراده شعائر دينهم في ربوعه بطمأنينة يظل أمانة في أعناقهم. يوالونه بدافعية إيمانية تدفعهم إلى موالاته خشية عليه من أي من يمسه بأذى كي لا تستباح بيضته أو تنتهك حرمته فيتزعزع أمنه ويضطرب مؤمن ناسه. فالولاء للوطن يسري مبدأ عاماً. فلن ينال منه منالاً طالما قام على أسس لزومية موضوعية بين أرض الاستخلاف وبين الإنسان المستخلف المقر بفرضية الولاية لله على الأرض يتوالى فيها المجموع بولاية بعضهم بعضاً ولاء يلزم الإذعان لتعاليمه والالتزام بنظمه وقوانين دستوره، فوفق هذه الاعتبارات تأتي الولاية للوطن لأنه المكان الذي نزاول فيه النهج الإلهي يقوم علينا حق رعايته لنعبد الله على صعيده بأمان وذلك برعايته والوفاء له فالمواطن المؤمن الذي استيقنت نفسه معنى الولاء ملزم بتعهد مستلزماته وتفعيل مترتباته كصدق المواطنة وإخلاص الانتماء هي مدلولات ولائية تحرص عليها عوالم

المجتمعات بأسرها. فلم تظهر عبر العصور أي خلافات بين المفكرين حتى غير المسلمين على مسألة موالاة الأوطان حيث تتفق الشعوب على موالاة أوطانها تعبيراً للتبعية لها والانقياد خلفها بجعلها رمزاً لكياناتها. فمن جلباب الولاء ظهرت نظرية المواطنة.

القسم الثاني

المواطنة أم الوطنية

المواطنة أم الوطنية

هل تختلف معانيها أم ترادف لفظي يحملان معناً واحداً؟

إن ثمة من يرى اختلافاً طفيفاً يفرق بينها لفظاً ويجمع بينها اصطلاحاً.

* فإن قلنا مواطنة فهي نتاج تفاعل ثنائي بين أرض زائد إنسان أدى تفاعلهما إلى نشوء رابطة تواطن. فالفعل: وَطِن يواطِن أو يتواطن فيقال وَطِن الشيء أي ألفه وقَبله وكذا الأرض توطن بها الإنسان أي ألفها وقبل العيش عليها مستأنساً بها متوافقاً مع مكوناتها لا يجافيها أو يتجانف إلى سواها أو يحابي على حسابها ضد مصالحها.

فالإنسان يتواطن مع الأرض التي يقطنها فيدعى مواطن وندعو الأرض التي استأنسها وطن ومصدرها مواطنة.

أي انفعال هذا المواطن في أرضه التي صبغته بصبغتها بعملية استفعال بين متفاعلين أو مستفعلين كل منهما فعل فعله في الطرف الآخر وعلى شاكلة ذلك يأتي الفعل يستوطن أي المكان الذي يقيم ويتخذه ملاذاً لسكناه ينزله ويستقر به في عملية تأثير وتأثر بين ساكن ومسكون فيه، فالأرض بما فيها من

إنسان وحيوان وشجر وجبال وبحار وأنهار وصحاري وهواء مجتمعة أو على حدة ذات تأثير على حياة الإنسان صاغت منه كائناً متفاعلاً وهو بدوره استفعلها لإشباع حاجاته فعمل على تعميرها مشيداً مظاهرها مستخرجاً كنوز بطائنها مستنفعاً بطاقاتها مؤثراً فيها فكان الإنسان وليد بيئته لا يكف عن التأثير فيه ولا يتوانى عن تأثيره فيها لا يشبع منها لأنه استنبات مادتها.

قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾﴾ [1]، عملية تبادل تأثيري اقتضتها حكمة الخالق تزخر بها الحياة.

فإن جاز التعبير فهي أشبه بعملية تفاعل كيميائي أنتجت رابطة عضوية نسميها مواطنة تسمية مقيدة بعنصرين ماديين هما الأرض زائداً الإنسان تمثل صيغة التواطن في بقعة جغرافية يعيش عليها مجموعة من الناس قامت بينهم رابطة مواطنة.

* أما إن قلنا وطنية فهي لفظ لا يخرج عن خط الأولى عن خطها بل تعتمد على عنصريها الأساسيين (الجغرافي والإنساني) فإذا أضيف إليها عنصراً ثالثاً هو العنصر التاريخي

(١) سورة نوح، الآية: ١٧.

فسوف يتسع نطاقها ليتسع معه المعنى إلى ما نطلق عليه مصطلح الوطنية لتأخذ بعداً أكثر شمولية فالثاني يسع الأول. فيجتمع المصطلحان في عمومية المعنى ويفترقان في خصوصية المدلول.

بمعنى أن المواطنة تنحصر في علاقة تواجد إنسان على أرض. والوطنية تعني تواجده عليها مشبع بعواطف الرفقة مع الأهل والصحاب وتراكم ذكريات مؤيدة بعادات وتقاليد البلد وأعرافه وأدبيات تراثه ومخزون ثقافي وقيمي مكنون في النفوس. إنه التاريخ الذي يكتنز الضمائر.

فالوطنية تتكون من ثلاثة أضلاع الأرض + إنسان + أرث تاريخي وثقافي. في هذا السياق يمكن أن نلحظ أن هناك خيط رفيع بينهما فالوطنية لا تلغي المواطنة بل تشملها وتوسع مفهومها فإن قلت مواطنة تبادر إلى الذهن أرض وإنسان وإن قلت وطنية فيوحي لك بانسجام شمولي بين مكان وإنسان وتاريخ. وأياً كانت التسمية مواطنة أو وطنية فإن جوهرها باق في قاع معناها إذا نطقت أحدها ناجاك ثانيها فهي التي تأتي ممزوجة بعواطف الشعور الظاهر والإحساس الباطن مؤلفة حالة التوافق الاجتماعي القائم على ثوابت الدين القويم الذي يروي المواطنة بنكهة الرضى الإيماني حمداً لله الذي استخلفنا

وهـدانا لـدين الإسـلام دسـتور حيـاة ومـصدراً لتنظـيم أسـس التعايش في مجتمع متسامح متضامن موقناً بوحدته وترابط كيانه. ثوابـت تتوارثهـا الأجيـال جـيلاً بعـد جيـل تواصـلت عراهـا وتداخلت أواصرها في أعمـاقهم انطبعـت في النفـوس انطباعـاً توافقياً وجدانياً لا خياراً مظهرياً يستطيع الإنسان التخلص منـه متى ما شاء أو يكيفه كيفمـا أراد. فالوطنيـة غـرس مـرتهن لهـا المواطن لا مجال لزحزحة يقينها فهـي ليـست لـصق انفعـالي أو لـزق مزاجـي بـل جـذر متجـذر بغـور الأرض وإرث فكـري وتاريخي شعبي سارب في الزمن متوجاً بوصايا توصي المـسلمين بالحفاظ على ديارهم والدفاع عنها مما يعزز صفة مواطنة المـسلم على أرضه.

فمن الغرسين الديني والتراثي تستسقي المواطنة قوام بنيتها الأساسية فمن قـوي وازعـه الـديني وعمـر قلبـه الإيمـان قـوي تواطنه في بلاده التي يتمكن من تأدية فروض عبادته بـلا خـوف يصرفه عنها أو فزع ينتقص مـن حريـة ممارسـاته لهـا. فكمـا لا يكون المسلم مسلماً إلا بإقامة شعائر الـدين فـالمواطن لا يكـون مواطناً إلا بإقامـة فـروض المواطنـة الـتي مـن فروضـها نـصون الأرض حيث نقيم دين الله عليها. وهو ما يرجع إلى قيام تصور

عام لدى الجميع بأنهم يدينون بدين واحد وينزلون أرضاً واحدة ويستظلون بسماء واحدة ينتفعون بمنافع مشتركة يضويهم مبدأ يعز مكانة الأرض لا يدنوها يغلوها ولا يرخصوها يرفعوها ولا يخفضوها لا يهون عليهم هوانها يجتهدون في المحافظة عليها والذود عنها بالغالي والنفيس لأنها مستودع قرارهم يتراحمون فيما بينهم ما يرجح أن ندعوه «بالمجتمع التراحمي».

وعلى هذه الأسس من التوافق الإيماني والعاطفي يقوم التوافق الاجتماعي لصناعة الحياة على خارطة الوطن ليدلي كل بدلاه ليضمن بعد الله عافية مصلحته ومن مجاميع المصالح الشخصية يقوم التصالح على تقدير مصلحة عليا لصالح المجتمع الوطني فالوطن بأبنائه فلا وطن دون مواطن ولا مواطن دون وطن فكلاهما صنو الآخر لا تقوم قائمة لأحدهما دون الثاني. فأنت بالوطن والوطن بك يربط بينكما رابط العيش وتاريخ وثقافة شعب وموروث أمة تصافحت في جعبة المواطنة التي وقعت موقع احترام اعتباري مكنون.

وإذا كانت الوطنية قد حظيت بتناولات فكرية عبر العصور قامت على أساس حقوق الفرد وواجباته والسلطان

ومستوجباته توهتها نظريات روجوها بمذاهب شتى أخرجتها عن خط سيرها.

ففي نظر الفكر اليوناني ومن دار في فلكهم ذهبوا إليها من منظور فكري لا روحي. وعلى مر امتداد الزمن قامت الحضارة الرومانية على موروث الفكر اليوناني أو صدى له جاءت نظرتهم للمواطنة مستوحاة من تعاليم الكنيسة وهي بذلك تؤصل مرجعية مفهوم الوطنية على أسس دينية مع الأخذ بالوضع القانوني من منطلق أن الفرد إذا أقر بفرديته كعضو في المجموع فقد ألزم نفسه بعلاقة قانونية بينية بينه وبين السلطة تنظم ما له وما عليه. أما في عصر النهضة فقد قامت المواطنة على رؤية حديثة تفيض في نواحي الحقوق وتغيض في الواجبات مركزة على الأولى أكثر من الثانية. فمن حقوق مدنية إلى اجتماعية، سياسية، خدمية فصلوها تفصيلاً ذهبوا فيها مذاهب فكرية كل حسب رؤيته حتى كادوا يغفلون الواجب المترتب على الفرد وأفاضوا في منحه حقوقه المدنية على حساب الواجبات المفروضة.

وظل مفهوم الوطنية يراوح بين قديم المذاهب وما تلاها حتى ظهرت نظرية حديثة تحاكيها بفكر حداثي ليبرالي تعكس

قيماً معاصرة هي مزيج من أفكار وعقائد اجتهد أصحابها بإدخال تجديدات تميل إلى ما تراه النظرة التقليدية يتحفظ بتأثر أصحابها بفكر حماسي ليبرالي متحرر يتسع في جانب الحقوق دون سقف يقف عنده أدخلتها في دوامة حالت دون الوصول إلى صياغة مفهوم محدد بل اصطدمت مع المدرسة التقليدية ما جعلها تراوح بين تجاذبات تركز على الحقوق وتغفل الواجبات مما توه مفهومها بظل كل يراها حسب منظوره ويفسرها وفق معاييره حتى كادوا أن يوصلوها إلى عقيدة فكرية بديلة على حساب العقائد الدينية.

وفي خضم تيه الرؤى وما يدور في فلكها من تباينات وطروحات تتوسع في نطاق وتضيق في آخر جاء الإسلام وقد حسم القضية بنظرة حاكمة متوازنة ماسكاً الأمور من منتصفها لا يغلب جانب على آخر بل حدد الحقوق وأوجب الواجبات موزعة توزيعاً معتدلاً مقرراً حقوق الفرد بحيث لا تطغى على حقوق الآخرين [1] مبيناً ما للفرد على الجماعة وما للجماعة على الفرد وما على الحاكم على المحكوم والمحكوم على الحاكم

(١) حقوق الإنسان في الإسلام للدكتور ناصر البقمي، الرياض، ١٤٢٩هـ.

نظرية تؤكد فكرة التكافل الاجتماعي لا يبخس فيها حق الفرد أو تهضم حرياته الشخصية أو ينتقص فيها ما يتوجب عليه نحو مجتمعه احتواها الإسلام بمبدأ الناس سواسية كأسنان المشط [1] لا فضل لصاحب جاه أو غني على فقير. فخط خطوطاً شدد على الحرص عليها بل أنزلها منزلة فرض الأداء لا يجوز التهاون فيها أو التغاضي عن القيام بها ورتب عقوبات لحمايتها من التجاوزات أو الاعتداء عليها سبق بها القوانين الوضعية والمنازعات الفكرية التي تقربها من الهدف تارة وتبعدها تارة أخرى وكأن النظرية الإسلامية جاءت مخرجاً من تلك الجدليات فالعالم عاجلاً أو آجلاً سيدرك أن مبادئ الإسلام كفيلة بلجم الإسقاطات الفكرية فيما يصلح شأن الفرد لفك الارتباط بين الجدليات المتضاربة وليس أدل على ذلك ما تردد مؤخراً أن أحد القساوسة في بريطانيا دعا جهاراً إلى تبني القواعد الإسلامية في مسائل الأحوال الشخصية. إذ أن الرؤية الإسلامية التي حكمت الوضع الإنساني من خلال مجموعة من الحقوق والمصالح تنم أن هناك صلة وثيقة بين الفرد (المواطن) والأرض

(١) حديث ضعيف جداً وقيل موضوع وقد أورده الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة والاستشهاد به كقول يتردد كحق إنساني.

(موطن) فهي تعبر عما نحن بصدده في مفهوم المواطنة ثم الحاكم (الإمام) الذي يناط به تنظيم الأمة وتحديد العلائق بين مكوناتها الاجتماعية لتحقيق المقاصد الشرعية لمجتمع إسلامي تنبثق تعاليمه من الدين وضوابطه فطبقاً لرأي الدكتور محمد إبراهيم الحسان الذي استنبط تعريفاً للمواطنة بأنها:

عبارة عن مجموعة من العلاقات المتبادلة تتضمن الحقوق والواجبات التي يتمتع ويلتزم بها في الوقت ذاته كل طرف من أطراف هذه العلاقة.

ويقرر أن مصالح الأطراف الأساسية في علاقة المواطنة ليست مصالح متنافرة كما صورها الفكر الغربي الذي انطوت رؤيته على التناقض والتنافر والتعارض بين المصالح العامة والمصلحة الخاصة وبين الفرد والمجتمع وبين الحاكم والمحكوم. وعلى العكس تماماً طبقاً للرؤية الإسلامية، فمصالح الفرد والحاكم والمجتمع لا تتعدد من الأساس بل هي مصلحة واحدة تتمثل في إعلاء وتطبيق الشرع المطهر وإقامة المجتمع الإسلامي القائم على الكفاية والعدل.

ثم يردف قائلاً:

على خلاف الفكر الوضعي فقد أعلا الإسلام من قدر

الواجبات متجاوزاً بذلك الخطأ الكبير الذي وقعت فيه الأفكار الوضعية بحصر المواطنة في مجموعة من القوالب النظرية والشكلية الضيقة [1].

وهنا تتقرر حقيقة أن الإسلام نظام حياة شمل كافة جوانبها وشعبها ينظم حياة البشر بشكل متوازن لا خلل فيه يوائم بين النوازع والرغبات والمتطلبات الحياتية وسبل الكسب على أسس منهج لا تتنازعه الأهواء أو تتجاذبه الأفكار المؤدلجة أو تطوحه النظريات الفلسفية. ضامناً لكل ذي حق حقه وأبان لكل حدوده لا طغيان أو تفاوت في تطبيق أحكامه ينتهجونه نهجاً تعبدياً لربهم في وطنهم الذي يعبرون عن مدى ارتباطهم به عن طريق علاقة الوطنية التي تشدهم لبعضهم وتربطهم بوطنهم تستسقي ضمانتها من أربعة مصادر أساسية:

١- قوامة دين.

٢- أصالة أرض (وطن).

٣- عراقة إنسان.

---

(١) د. محمد إبراهيم الحسان، المواطنة وتطبيقاتها في المملكة العربية السعودية، الجزء الأول، دار الشبل للنشر والتوزيع والطباعة، ١٤١٦هـ ص ٦٨-٦٩.

٤- عزارة موروث.

١- فالدين هو الإسلام الذي ارتضاه الله لعباده.

٢- **الوطن: جغرافياً:** هو المكان أو المنزل الذي ينزله الشخص ويستوطنه أي يجعله موطناً، وهو الذي اتخذه ملاذاً له وسكناً فيه.

- **الوطن: سياسياً:** فهو المكان المحدود بحدود معترف بها دولياً ينتسب له من هم داخل حدوده.

- **الوطن: وجدانياً:** فهو ذلك المكان الذي توطنت فيه مجموعة من الناس يربط بينهم شعور بمصير واحد يلتمسون مبتغياتهم تسودهم مودة التساكن الجماعي وصلات قربى ومصاهرة أرحام جدر صلاتهم الوجدانية على الأرض.

٣- **الإنسان (المواطن):** هو ذلك الفرد الذي يعيش على هذه الأرض يتقاسم مع إخوانه وذويه هموم العيش وسلامة المقام عليها يرتبط معهم بتعاهدات موثقة وتعاقدات عرفية ضمنية فرضت حقوق وقيام واجبات يترتب عليها أدوار على الفرد نحو المجموع ومن ثم المجموع تجاه الفرد الذي يمثل مفرده أساسية في تركيبة المجتمع الذي به ومعه تتلون أطياف الحياة. وبما أن الفرد جزء من مجتمعه يأخذ ويعطي لتتحول عطاءاته الفردية

إلى جماعية ضمن عمل مؤسسي مستدام يدخل بلادهم زحام التنافسية المنتجة.

٤- **الموروث الثقافي (تاريخ):** التاريخ سجل الزمن ومرآة تعكس سيرته على الحاضر موصول بالماضي والمستقبل نتاج الحاضر والموروث حاضن مفعول ما قبلنا نقلب صحائفهم نظم تراكمي عبر الحقب توارثته الأجيال وتواصلت به الأحوال تعتز به الجماعة ويتمسك به الأفراد تلقفه الأحفاد يحتضنونه بحفاوة ويستودعوه وديعة مدخراتها كنوزاً من الفضائل في خزائن الأيام أصالة تليدة يستضاء بها نبراس تواصل مع أمجاد حمل لواءها الأجداد تأسياً بما خلفه خير الأخيار محمد سيد الأنام ﷺ داعياً بدعوة الحق من رب العباد مرشداً لفضيل العمل وقويم الأخلاق فاليوم نفس الأمس والأمس ظل اليوم يتسنم خطى الأسلاف قيماً وحضارة معطرة بماضي الأول على هذه الأرض فازدانت بهم الدنيا جرعوها كؤوس تضحياتهم فرووها زاهي بطولات سطعت أنوارها في الآفاق على مسارهم يواصل الوطن طريقه إلى ذرى المجد بمواطنة لا تتثاءب. حققت عز المرام وصيرورة أمن المقام هكذا تنبري المواطنة علاقة تفاعلية يترجمونها قلباً وقالباً منصهرين في بوتقتها فعلاً وتفاعلاً تصب

في ربع الوطن نماء وازدهاراً وعماراً قاعدتها الفرد ومحيطها الجماعة تربطهم رابطة مواطنة عضوية. فلا يمكن تصور نهضة الوطن في معزل عن شعور المواطنة نقطة التقاء في منظومة وطنية لا تتوارى أو يغمض طرفها تستجمع القوى في إطارها لتتبارى السواعد لتبني بأيد متماسكة تلاقح بين ماض مجيد ومستقبل واعد ترنو إليه مآربهم يقتفون خطى السابقين مستلهمين صدق عزائمهم التي أيقظت أمماً من غفوتها واستفاقت شعوب من نومتها أضاءت بحضارتها دياجير الظلمات واستنارت بشعلتها عقول الجهالات حملت لواء الحق بأمانة وطنية إسلامية ودافعية إيمانية انبعث من موئل الدعوة ونبع النور انطلقت ناشرة رسالة الإسلام.

فالمواطنة محتوى تستحكم حلقات مكوناته من ثقافية واجتماعية وسياسية واقتصادية وأمنية في رباط جامع يوثق وثاقه استحقاق مصلحة الوطن العليا [1]. لا مكان فيها للفردية أو المصلحة الشخصية أو الفئوية تتغلب فيها نحن على الأنا لتبلغ الأهداف على قاعدة المواطنة المتكافلة بجماعها تتجلى

(١) منطق السلطة ناصف نصار الطبعة الأولى، دار أمواج للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان.

روح المواطنية تسكب سكيبها في دوحة الوطن نوصفها توصيفاً على ما يأتي:

توصيفات المواطنة:

توصف المواطنة توصيفاً حقوقياً يكيف علاقة مواطن بوطنه علاقة لزوم والتزام على النحو التالي:

١- مواطنة حقوقية ملزمة (قانونية).

٢- مواطنة واجباتية ملتزمة (قانونية).

٣- مواطنة مشاركة (عرفية أدبية).

٤- مواطنة قيمية شرعية (دينية).

٥- مواطنة مجتمعية.

١- فالأولى يمليها دستور الدولة وتكفلها التشريعات وتفرضها السلطات بحكم أن الدولة هي الضامن المرجعي لرعاية الحقوق المادية والمعنوية تضمن حق الفرد القانوني باكتساب صفة المواطنة في بلده.

٢- الثانية مواطنة واجباتية: فيمثل الحق المكفول للمواطن فإنه تلقائياً تقوم عليه واجبات فكل حق مكفول يناصيه واجب مضمون فهما وجهان متلازمان ما أن يتحقق

الأول مطلباً مستحقاً ألا يبرز الثاني إيفاءً وجوبياً فكما الحق مصان بأنظمة فإن الواجب هو الآخر تصونه تلك الأنظمة والتشريعات بنفس القوة. فالمواطن الذي يطلب حقه وافياً مطالب أن يؤدي واجباته نحو وطنه تاماً.

إن العبرة في الحصول على الحقوق مرهونة بالتوازن مع وفاء الواجبات فبقدر الحرص على نيل الحق بالمقابل يلزم السعي بنفس الحرص للقيام بالواجب كمعادلة بين متقابلين «المطلوب من الحقوق ومبدول من الواجبات» فكثير ما تختل المعادلة ويشوبها شيء من الخلل غير المتوازن حيث يركز البعض على ما لهم غافلين عما عليهم ناسين أو متناسين أن المواطنة تحكمها قاعدة الأخذ مقابل العطاء فإن نأخذ دون إن نعطي فهو غمط للوطن ينم عن قصور وعي بمفهوم المواطنة التي لا تقوم إلا بحقها في ميزان الاستحقاق حقاً كان أم واجباً لتتعادل كفتيه فيما للإنسان وما عليه فكما لا يرغب في بخس الحقوق فلا يرغب عن الواجبات وفاء غير منقوص أو أداءً مبتوراً وألا يوكل بقضائه لغيره لأنه فرض عين لا يجزئه أن يقوم به أحد عن أحد فلا يقوم به سوى صاحبه ليستحق صفة المواطنة ولن يكون كذلك إلا إذا أخلصت النية فالإخلاص جوهر الطاعات لله

ولرسوله ﷺ ثم للوطن وأهله تحددها تكاليف وترعاها قوانين تضبطها أنظمة وأعراف معتبرة.

٣- مواطنة مشاركة: تعايش مشترك يمليه قناعة ثابتة بحق الفرد على أرض الوطن مع جماعة يتعايش معها توفر له عيشاً كريماً لأنه نسيج من نسيجهم احتسى معين ثقافة أعرافهم وعاداتهم وتقاليدهم يلتزم ببنودها التزاماً أدبياً لا خروج عليها أو يجاوز حدودها هي قوانين إن كانت غير مكتوبة لكنها تملك قوة التزام متعارف عليها أنضجت مقاصدهم المتشاركة..

٤- مواطنة قيمية شرعية: اقتضت إرادة المولى عز وجل من خلق الإنسان أن كلفه بعبادته فخلق له الأرض واستخلفه ليقضي ما خلقه مولاه من أجله عليها مما زاد من تأصل معنى التواطن عليها كونها مقر عبادة وسخر له من مخلوقاته ما يقتات عليه ويؤمن عيشه استقواء بها لتأدية طاعاته مستلهماً أخلاقيات موروثة في الحفاظ على أرضه محكوم بحاكميه شريعته لأنها حاكميتها تحكم المكلفين بها ماسكاً آداب أمته.

٥- مواطنة أديمية: عندما يتفكر المرء ويسترجع أطوار حياته العمرية سيجد أن الأرض التي ترعرع عليها غرست في نفسه ميلاً غريزياً يستوحش غربة لو ابتعد عنها ويضيق صدره

لفراقها يهاجسها توقاً لريح أديم تربتها يشده حنينه نحوها يهتف بها وتهفو نفسه إليها لأنه صنيعة الله من تربتها يشفي بها سقمه كما ورد في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله: «تربة أرضنا يشفي بها مريضنا» [1]. فحق الالتصاق بها استشفاء بتربتها.

٦- مواطنة مجتمعية: ينشأ الفرد أساساً في مجتمع الأسرة الصغيرة التي تكوِّن خلية من خلايا المجتمع الكبير يولد ويترعرع في أحضانها تكسبه أساسيات سلوكياته ومهارات التعامل يتربى على القيم النبيلة ومن مجموع الأسر يتكون المجتمع الكبير تنمو فيه معارفه بصقل مواهبه متجاوباً مع وسطه الاجتماعي يشاطرهم الهموم والأفراح والأتراح يتقمص طرائقهم تجمعهم إلفة مواطنة مجتمعية تكون مبعث آمال ومصدر قوة وسعادة تنضج فيها شخصية الفرد مؤثراً ومتأثراً. بموضوعية إيجابية بين أبناء الوطن الأمر الذي يزيد مشاعر التقارب بينهم ويرفع درجة الإيثار بمواطنيه مجتمعية داخل الوطن.

فالوطن الذي يؤمن مقتضيات العيش الكريم للفرد.

---

(١) صحيح مسلم.

ويسلم إليه مسلمات المواطنة. فمن يتمتع بها يرفعها شعاراً عالياً ينبغي أن يقرنها بسلوك يجسد صدق تواطنه لتطابق الأقوال الأفعال منسقة مع منطق الغايات الكبرى التي تسعى إليها النسق الاجماعية مترجمة بذلك علاقة تنشأ بين وطن ومواطنيه مفعلة بالأقوال مدعمة بالأفعال صدقاً في الخطاب إخلاصاً للعمل إتقاناً للأداء يهدفون إلى هدف مشترك يؤكد احساس الفرد بما تحس به شخوص الوطن يتفانون فيه بمنطق الوطنية. وهذا يعني قاسماً مشتركاً يقع على عاتق الكبير بنفس القدر على كاهل الصغير. فالهم واحد والهمة متناسبة يتنادى إليها الجميع إذا جد جد الوطن لا يتوانى فرد أو تتراجع جماعة فمقاس الوطنية متساوي. مما يبرهن على احتواء الإنسان لوطنه واحتواء الوطن لبنيه لا يضيمهم فيه ضيم ولا يضام فيه حق. فالوطنية المخلصة لا تتأثر مصداقيتها عند الوطنيين المخلصين فهي ذمة على الكاهل لا تتناقص جرعاتها أو تهتز شجرتها تتمايلها مع تيارات المتغيرات.

فمن يرى أن عرى المواطنة قد يشوبها شيء من الضعف أو تلبس رداء التغيرات دون دراية متأثرة بمقتنيات العصر وتحولاته الفكرية ملتبسة بزخان حضارية مأدلجة كتيار العولمة

التي يتخوف منها البعض فليكن ذلك فالخوف من الجديد مدعاة للتفكر ووقفة للتأمل لكن لا يجب أن يستولى على لباب العقول أو يسد ثقوب التبصر ومقاييس الاختبار لنقع على أم رؤوسنا في مهاوي الركود والتراجع للوراء لا. فالعولمة ليست كلها شر كما أنها ليس جلها خير فهي ليست مركباً لتغيير الثوابت ولا مغير للسائد الحسن أو مبدل للرواسخ بل هي تيار حضاري محوره الاقتصاد وجوهره الاستثمار ينسحب تأثيرها على بعض من شؤون الحياة ومع هذا تظل معانيها قابلة للقبول والرفض فما هو ضمن واقعنا فالأبواب له منفتحة وما هو خارج هويتنا يجري تكييفه بما يوافق محتوانا. هنا تبرز المواطنة في هذا التكييف خيار ثبات لا تنازعنا فيها العولمة أو ذيولها. ولا تنازلات عن مضامينها لتبقى محكاً مرجعياً لا تقدر العولمة أن تفرض نفسها عليها أو تجرفها هبوبها. أو تضمحل جذوتها أو تذوب في حموتها وسيظل وهجها متقداً مهما كان رخم العولمة وجاذبيتها فهي قادرة على التعامل مع واقعها الحداثي المتعولم لئلا تتسرب إلينا من باب الانبهار وبريق الإعجاب تنساق ورائها دون وعي وطني بل لابد أن نطوعها توفيقاً وترويضاً نمررها على بوابات المتأصل فما يدخل من بوابتها مرحباً به ومن لا يمكن أن يمرر

فلا مرحباً به وبوابتنا دونه موصدة.

فإذا كانت العولمة تغيير حضاري فالمتغيرات الحضارية سمة من سمات الزمان والتحولات الفكرية علامات نهوض الشعوب دون المساس بالدعائم الأصلية لأن المواطنة ليست متغير سياسي قابل للتبدل أو خاضعة لمسار التيارات بل هي ثبات دين وسلامة معتقد وسليم قيم تلك دعائم الوطنية تناضجت مركباتها في نظام العقد الاجتماعي على جيد الوطن الذي لا تفريط فيه ولا مزايدة عليه مهما توهج سنا برق العولمة.

والعولمة التي تعني أيضاً انفتاح الثقافات على بعضها لا يعني أن حرارتها ستذيب ثقافات الشعوب أو طيها تحت جلبابها بل هي مخرج من مخرجات الفكر يهيئ مجالاً للتنافس مع الغير فندخل المنافسة بتأصيلاتنا الإسلامية التي تقبل ما اتسق مع نهجها لنقدمها في قالب إنساني متوافق مع العصر لنلجها شريكاً فاعل منفتح على الثقافات المعاصرة لنثبت قدرتنا على المنافسة واستيعاب الجديد في عالم الإبداع كي لا تذرونا الرياح خارج نطاق الزمن.

فحضارتنا الإسلامية متجددة وليست جامدة منفتحة

ليست مغلقة على ذاتها أو منكفئة على نفسها فهو دين عالمي ورسالته عامة يقول تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا .... ﴾[1]. فطالما فضاؤنا واسع وفي ديننا فسحة للتطور فلماذا الخشية من العولمة على المواطنة فوطنيتنا مستمدة من روح الإسلام وحضارتنا الإيمانية مؤصلة بأصول شريعة الدين الحنيف. فما هو ثابت سيبقى ثابتاً وما سماته متغير فسوف نقبل عليه ونأخذ منه ما يلائم ثقافتنا وتاريخ أمتنا، هكذا تتأكد الوطنية رابطة أخلاقية أدبية تدفع الإنسان للتفاعل مع قضايا وطنه تكرس قوة التماسك الاجتماعي مما يؤهل المواطن أن يعتبر نفسه عضواً كامل الأهلية للمواطنة ملازماً لها وملازمة له لا يحول حائل بين وثاقه بها في سطورها يقوم نسق يتكون منه المجتمع الوطني الكبير بتوائم كل نسق مع آخر في وئام نسقي تضامني وحدوي في محيط تتقابل فيه الأدوار ليحافظ كل نسق على حالة توافق متوازن فيما بينها على مختلف تنوعاتها. فالاتحاد قوة للوطن والتعاون عماد له فأنعم به من اتحاد وأكرم به من تعاون في حياض وطن تجلت فيه حقيقة المواطنة فكيف

(١) سورة سبأ، الآية: ٢٨.

اكتسبت المواطنة منظومة قوامها:

بما أن كل قدر له وزن وأي وزن له مثقال وكل مثقال لـه حساب ثمن تلك عناصر تغذت عليها الوطنية وأحلت قوامها.

- فالقدر: منحدر من كيان قادم من غياهب الزمن وغور الأرض.
- وزنها: تاريخ إنسان ونبل أخلاق ومنهج دين.
- مثقال وزنها: تراكم أحوال وتلاحق حقب وتسلسل أجيال.
- حساب مثقالها: محسوب بحساب غلاوة وطن عياره عزة، قياسه كرامة وإباء.

هكذا تضافرت قوامة المواطنة فسمت فوق كل المقامات وارتقت فوق كل الهامات حتى لا توازيها قيمة أو يساويها ثمن. فغدت معزوفة تعزفها أوتار القلوب وأنشودة ترددها الألسن وتتغنى بها فطينها. وهو ما يفسر عمق وثقل قيمة المواطنة.

فمن يتمثل تلك القيمة يتبناها أمانة في عنقه تنسج عليه ضرورات:

- أمانة والأمانة تقضي حمل هموم الوطن وتحقيق أمانه وأمانيه.
- مسؤولية والمسؤولية تقضي الشعور لشعور أهل الوطن.
- مصداقية التعامل مع الوطن بما يرضي الوطن.
- الوفاء بالواجبات نحو الوطن.
- البذل الطوعي للوطن دون انتظار مردود منفعة فمهما أعطيته فعطاءاته أبر وأكبر.
- احتواء الوطن بقضاياه والدفاع عن مصالحه.
- إخلاص في الأداء وإتقان في الفعل.
- التضحية من أجل الوطن والتفاني في سبيل رفع شأنه.
- مشاركة في بناء حضارته وصناعة تقدمه.
- الحفاظ على تماسك وحدته وحراسة أمنه والإحساس بهمومه يساند توجهاته ويدعم سياسته.
- مراقبة العابثين بمقدراته ومكتسباته ومرافقه.

- كل مواطن يعتبر على ثغر من ثغور الوطن حريصاً على سلامته لا يفرط فيه أو يؤتى من قبله.
- مراقبة التجاوزات المضرة بالممتلكات وملاحظة التصرفات العشوائية المخلة بالذوق العام والأنظمة الاجتماعية.

هكذا أضحت المواطنة قيمة لا تخضع للتقديرات نسبية فالذمة في الوطن واحدة والمسؤولية تجاهه واحدة لا تقبل حداً أعلى وحداً أدنى فالهم درجته واحدة. بل لن تكون المواطنة بالكفاية المطلوبة ما لم تستكمل صفتها الشعورية شعوراً وطنياً غالباً وضافياً.

- فهل مجرد التبعية للموطن تكفي أن يتصف الشخص بصفة المواطنة. وهل استيفاء الحقوق دون الوفاء بالواجبات يحقق معنى الموطنة؟
- وهل حمل الهوية كافياً للمراهنة على المواطنة؟

لا ليس هذا كافياً فحسب فالاتصاف بها شهادة أنه محسوب على الوطن لابد أن تعززها همه بأقصى ما أتوي من قوة لا يدخر عطاء الوطن في حاجة إليه وهو ما يعني دفع فاتورة التواطن باندماج خلاق يحقق مبدأ المواطنة للوصول بالبلاد إلى

فوقيات المجد فالمجتمعات الناهضة لا يقوم قوامها الريادي لصناعة الحياة في غياب روح المواطنة التي تحفز المواطن لمشاركة فاعلة مع أطياف الوطن لتأكيد دوره الوطني على الأرض.

فالوطن هو الوطن أينما حل الإنسان أو إرتحل دارك أينما كان مدارك، فالديار تكتب الآثار كما قال المصطفى ﷺ فيما روى الإمام أحمد عن جابر بن عبدالله – رضي الله عنه – قال: خلت البقاع حول المسجد (يقصد مسجد رسول الله ﷺ) فأراد بنو سلمة أن ينتقلوا قرب المسجد فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال لهم إنه بلغني أنكم تريدون أن تنتقلوا قرب المسجد قالوا: نعم يا رسول الله فقد أردنا ذلك، فقال صلى الله عليه وسلم: «دياركم تكتب آثاركم، دياركم تكتب آثاركم» [1]. ففي قوله صلى الله عليه وسلم تنويه بمكانة الأرض وشاهدنا هنا حث بنو سلمة لزوم ديارهم لتكثر خطاهم إلى المسجد.

فالحفاظ على الديار يبرر قوة الارتباط بها. فبين منحنياتها

---

(١) تفسير ابن كثير في معرض تفسير لقوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَـٰرَهُمْ ﴾ في سورة يسن. وكذا أحكام القرآن للقرطبي. وابن عطية حيث يخلصون أن المقصود بالآثار كثرة الخطى إلى المسجد وشاهدنا في الموضوع الرمزية إلى الاحتفاظ بالديار.

حكايات تروي قصة إنسان مع أرضه وفي ثناياها موروث ينضح بآثارها – وفي زواياها قصص وعبر واعتبارات زمان ومكان بطياتها بطولات وملاحم وتضحيات وأساطير تنطق بتاريخ تفاعلي على الأرض يحوم في حومتها الفرد مشدود إليها مؤمناً باجتماعه مع بني قومه ماسكاً أسلوب حياتهم قانعاً بحوزته معاهم حوزته أشربت به نفسه مخزون تجاربها كتابها معقود في رقبته يقرأ سطوره مع كل عمل يشارك فيه وكل خطوة تبارك نماءه تزيده شموخاً وتألقاً. فكل قول يقوله أو فعل يفعله تبعاً له. فحبل الوطنية موثوق بأمانة الكلمة وعقدها موصول بإخلاص العمل فكيف لا يحفظ لها عهداً وقد بات ديدنها الإخلاص وشعارها الصدق وذروة سنامها الوفاء. فهي ترجمة حقيقة لعشرة بين الوطن ومواطنيه. فما لها بعد هذا لا تكون مدار غاية غلبت كل الغايات منطوقها يعكس مصداقيتها لا يستهان في سبيلها بصغيرة مهما صغرت أو يستقل قليل مهما قل فما يراه شخص مخلاً قد لا يراه آخر فلا يعني إهماله أو التغافل عنه فالصانع في مصنعه والفلاح بين زروعه والعامل في معمله والموظف في ديوانه والمعلم في مدرسته والطالب في صفه والتاجر في متجره ومن على شاكلتهم كلهم في الهم سواء.

فالمركب واحد هم شراعه. وهم مجاديفه وعمود توازنه وهم دفة مسيرته وبوصلة وجهته يخوضون به عباب بحور الحياة بزخات موجاته ليرسوا به على شاطئ الأمان متسلحين بسلاح وحدة وطن لازمين جمعهم عدة وعتاداً متوكلين على بارئهم معتصمين بحبل الله المتين الذي ألف بين القلوب وأصبحوا بنعمته إخواناً متألفة قلوبهم. قال تعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ﴾[1].

فلا ينتابهم تمزق أو تعتريهم فرقة فأخوة الدين وموثوق الألفة بين القلوب تضع المواطنة في خدمة الإجماع الوطني. مصطلح لا يركن مدلوله خلف حروفه بل متحرك بحراك تفعيله على أرض الواقع ولم تكن مجرد لفظ يصبغ صفة هذا الوطن على ذلك الشخص المتصف بها دون أن يتغفل بها مدركاً إنها جماع وطن وإنسان وتاريخ وقيم وأخلاق وأدب لا ينبغي رفع شعارها خالياً من مضمونه أو مفرغاً من محتواه في تركيب توافقي مجرد من المصانعة تتأكد من خلالها عزائم:

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٠٣.

١- المحافظة على كيان الوطن ومصالح الأمة وسلامة أمنها.

٢- الحفاظ على خطوط متوازنة بين حق يطلبه وواجب يؤديه لا بخس فيه.

٣- إشاعة ود عام لا يمايز فئة دون أخرى على اعتبار أن الكل أبناء وطن واحد لا تفريق بينهم.

٤- الوقوف إلى جانب الوطن في حال الرخاء والشدة.

٥- مناصرة الوطن وأن لا يحابي أحد على حسابه أو يتقارب مع خصومه.

٦- احترام الأنظمة والقوانين وتطبيقها بروح مواطنيه.

٧- الرضوخ الطوعي لدستور الوطن.

٨- الاهتمام بهموم الوطن والتفاعل مع أهل بلده ومشاركتهم النشاطات والبرامج التنموية التي تعلو معاليه.

٩- إظهار أواصر المحبة لنبي وطنه مستبعداً النظرة المناطقية الضيقة ووضعهم في ميزان وحدة وطن.

١٠- النظر في الحق الشخصي إذا ما نازعتها مصلحة عامة

للتنازل عنها لصالح الوطن.

١١- الالتفاف حول السلطة في العسر واليسر أو إذا ألم بالوطن طارئ أو دخل في نزاع مع الغير.

١٢- التقيد بالقيم والأخلاق النابعة من أصالة هذا الشعب ومبادئ شريعته.

١٣- في منظومة الوطن كل فرد يعتبر نفسه جزء من نسيجه العام يقوى بهم ويقوون به.

١٤- صون ممتلكات الوطن ومرافقه ذات النفع العام والحفاظ على المكتسبات الحضارية والموروثات التاريخية.

١٥- محاربة الفساد كل في موقعه والتبليغ عن أي بوادر له لتطويقه قبل استفحاله.

١٦- احترام الآخرين والوقوف عند حدود تقاطع حق الغير.

١٧- المبادرة إلى تقديم العون لأبناء البلد والمساعدة في رفع العنت عن كاهلهم في حال شدة طارئة.

١٨- الحفاظ على الشخصية الوطنية وإظهارها نموذج

حضاري بمثلها العليا أمام الغير في الداخل والخارج.

١٩- إشاعة السلام الاجتماعي وسيادة روح التسامح من أجل الوطن.

٢٠- أميناً عليه وعلى مقومات بقائه مخلصاً لله فيه وفياً لأرضه صائناً لحمته.

ينازع من ينازعه ويهادن من يهادنه ويعادي من يعاديه يسالم من يسالمه تلك المفردات على المواطن أن يحيلها إلى ميزان الذات ليرى أين هو من تعادل الإيجابية والسلبية ليوازن عطاءه ويتلافى سلبياته أن وجدت لا سمح الله.

فمن تلبثت نفسه بتلك القيم فهو مواطن سوي المواطنة وصبل أهل الديار تناغماً معهم محباً لهم فهل تجد حباً يوازي حب الوطن؟

فما هو مضمون حب الوطن:

الحب شعور إنساني ينشأ بفعل علاقة وجدانية بين محب ومحبوبه وحب الأوطان نوع من الحب الحميمي بين الفرد وموطنه تجذرت أصوله بجذور التربة وتعمق بعمق الأرض. استوجدته الروح وشغفت به النفس شكلت رابطة التصاق

بالوطن ختمت عليه بختم طابعها ولدت فيه حنيناً طاغياً واستقر في النفس ولهاً بها ممتداً من الأرض لأهل الأرض الذين يشاركهم العيش فيها فرضتها صلات دم ورحم ووشائج قربى ومصاهرة عززتها لغة خطاب وثقافة تراث توجتها شرعة دين وقيم إنسانية جعلت الوطن محط ابتهاج النفوس تتداعى لها سلاميات الجسد تتوهج شعوراً يشع سناه في الأفئدة وترسم على الشفاه بسمة وفي العيون لمعة تنفرج الأسارير به فرحة. ألا ترى من غاب عن موطنه تكابده حرقة فراقه ويتلظى بآهات البعد عنه. تناوله الفلاسفة وشرحوه أهل المنطق فثمنوه ثمناً فوق كل الأثمان ووزنوه وزناً فاق كل الأوزان.

هكذا يحتل حب الوطن حيزاً كبيراً في تربيعة الإنسان شغلت محبته بال الناس منذ القدم وخاض فيها المفكرون وتغنى بها الشعراء ترجموها حنيناً وترنموا بها شعراً جسدوها وجداً معطراً بأريج الأرض مخضبة بنسيم الأنفاس ممزوجة بنفيس الأرواح فهذا مصطفى الرافعي يبث وجدانه لبلده قائلاً:

بلادي هواها في لساني وفي دمي

يمجدها قلبي ويدعو لها فمي

ولا خـــير فـــيمن لا يحـــب بـــلاده

ولا في حليـــف القلـــب إن لم يتـــيم

وآخر يقول:

بـــلادي وإن جـــارت علـــيَّ عزيـــزةٌ

وأهلـــي وإن ضـــنوا علـــيَّ كـــرام

وقال ابن الرومي:

ولـــي وطـــن آليـــت ألا أبيعـــه

وألا أرى غـــيري لـــه الـــدهر مالكـــاً

وأنشد الناشدون: وطني الحبيب وأنت موئل عزتي وطني الحبيب وهل أحب سواه. ومن صدح بعالي صوته فوق هام السحب يا أغلى وطن.

وفي أوبريت الجنادرية الرابع والعشرين الذي كتبه الشاعر بدر ابن عبدالمحسن يقول في أحد مشاهده مخاطباً الوطن:

آه أحبك.. أحبك حب ضاري يملـــك إحـــساسي وقـــراري..[1]

(١) جريدة الجزيرة العدد ١٣٢٧٧، الثلاثاء ٨ صفر ١٤٣٠هـ الموافق ٣ فبراير ٢٠٠٩م.

فالإنسان مسكونة نفسه بموطنه لا يفارقه حبه أو تبارحه هواجسه فهذا سيد الخلق ﷺ يخاطب بلده مكة بقوله: (ما أطيبك من بلد وما أحبك إلي ولولا أن قومي أخرجوني منك ما سكنت غيرك) [1]، ففي هذا يتجلى حب رسول الله ﷺ لوطنه مكة وبعد هجرته صلوات الله عليه إلى «طيبة الطيبة» المدينة المنورة التي نزل مستوطناً بها آلفاً إقامتها سأل ربه أن يرزقه حبها بقوله: (اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا لمكة) [2] ليقينه أنها ملاذ وطن ومأوى إقامة وفي حديث آخر ورد عند مسلم (اللهم بارك لنا في مدينتنا وبارك لنا في تمرنا وبارك لنا في صاعنا وبارك لنا في مدنا) [3]، فمحبة رسول الله ﷺ للمدينة دلالة أخرى على حب الأوطان تترجم الصلة الوثيقة بين الإنسان وأرضه وأدواتها ومخرجاتها وناسها.

حب الوطن أجمع عليه السابقون الأوائل وتوارثه اللاحقون أوغل حبه في الذات البشرية مضمونة الذود عنه

(١) مسند أحمد.

(٢) الصحيحين.

(٣) صحيح مسلم.

شعاره نصرته هدفه استقراره وأماناً لحاضره وقابل زمانه مستشرقاً مستقبلاً خلياً من آفاق الزعزعة ليعيش آمناً في سربه بين أهله وجماعته.

قديماً ردد الأُول حب الوطن من الإيمان قول مازال يتردد على الألسن. وأيّاً كان موقعه المنقول فما يهمنا فيه أنه كناية عن حبه لم يأت منزوعاً من معناه أو ضحالة مدلول ثروته حكمة استطاب الناس ترديدها احتراماً لعميق صداها مرددين معها:

دام

عزك

يا

وطن

العز

وفيما ينقل في الأثر أيضاً قول الحافظ ابن حجر في حنين الأوطان أن العرب كانت إذا غزت أو سافرت حملت معها من تربة بلدها وأما من غير العرب فقد كان طقوس الحرب عند الصينيين القدامى أن استسلام الخصم يعلن بعد أن يطأ القائد المنتصر بقدمه على تربة المنهزمين يقدم في صحن كناية عن إهانة

أعز ما لدى الإنسان بعد النفس. ولعل شاعر فلسطين محمود درويش ذاب وجداً بقضية وطنه أشعرها غماً بها وهماً عليها حتى أسموه بمجنون التراب جوازاً. أو ليس هذا يضاهي ما قاله أبو العلاء المعري رفقاً بالأرض:

خفف الوطء ما أظن أديم هذه الأرض إلا من هذه الأجساد

تنويهاً أن الإنسان من نبت الأرض يستحثه الرحمة بها واحتراماً لها.

فعندما نتغنى بحب الوطن وننشد حبه فلأنه غرساً تراثياً وارتباطاً وشائجياً. لا ننزله شعيرة في مصاف شعار الدين فمحبة الله ورسوله ﷺ أشد حباً فنحمده تعالى الذي حبانا هذا الوطن نمارس فرائض ديننا لا ينازعه حب بعد حب الله ورسوله. فالحنين إليه يستوي معه الحنين لساكني الأرض حتى وإن ابتعد عنها يبقى حنينها مشتعلاً داخل فؤاده يعانقها عن بعد ويناجيها في متقلبه لعل بعضنا الذي درس في الخارج يدكر كيف كانت لوعة الحنين ومعاناة الغربة وما ذلك إلا بفعل الحب لمنزل الديار وملتقى الأحباب وذوي القربى من أهل ورفاق يتوثب الإنسان تطلعاً لعناق تربة بلده يستدفئ بدفء عواطفه والتشوق للعودة إليه صاغها شعراً حنينياً من قال:

لي وطن كلما لاحت ذكراه في خاطري اهتزت له روحي وفاضت جوانحي

أفاض الباحثون وقرر الدارسون عبر حضارات العصور في مضمون حب الوطن أهو فطرة أم مكتسب؟ حتى استقر رأي الكثيرين أنه مزيج من الاثنين فهو فطري لأن الإنسان مخلوق من الأرض فيميل إليها ميلاً طبيعياً. قال تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ....﴾ (١). وهو مكتسب لأنه يكتسب صفاتها الوراثية تراثها وثقافتها وأسلوب التعايش مع أهلها والتكيف مع طقوسها بهذا التمازج إستوفت منازل المحبة فطرة واكتساباً صممت نموذجاً وشائجها في نفس الإنسان يلهج لسان حاله يردد مع من يقول:

من أجلك أرضي أنشد ولك موطني أقول القصيد ففي كل شبر لي فيك ذكرى وفي كل ركن لي فيك بصمة فدعني أضمك إلى صدري لأروي ظمأ حنيني لأنك هبة ربي جل علاه موطني مضمون لا يوارى وعزم لا يبارى وحب لا يجارى. فليس هو مصطلح قابل للتغيير أو خاضع لتبدلات وتموجات الأوضاع أو زخات الأزمات أنه غرس في الضمائر مغروز في

(١) سورة طه، الآية: ٥٥.

الوجـدان استرضـعه الرضـيع فـسار في الـضمير حاضـراً وفي الوجدان متقداً لا تخفت ولعته لا يشغله عنه شاغل أو تلهي عنه ملهاة، عبر عن هذا المعنى أمير الشعراء أحمد شوقي قائلاً:

وطــني لــو شــغلت بالخلــد عنــه

نــازعتني إليــه في الخلــد نفــسي

الوطن في الـنفس موسـوم بوسـم الأرض معقـود بأبعـاد الفعل فعل ماضي «الأمس» وفعـل مـضارع «اليـوم» ومـستقبل الغد واعد (رقي وتطلع ونهوض) ولما أن للفعل فاعل ومفعـول ينصب عليه فعل الفاعل.

فالفعل تواطن والفاعل مـواطن والمفعـول بـه وطـن وفي نفس الوقت هو مفعول لأجله أي لأجل الوطن ينفعل المـواطن لا يبوء كاهله بقضاء عهـوده والوفـاء لـه والتفـاني في سـبيله في العسر واليسر وإذا ما نظرنا إلى الوطن من زاويـة المبتـدأ والخـبر فهو مبتدأ مبني على الرفع لترفع هامته على الرؤوس.

خبره تعدد صيغة مبني على الضم بضم الصفوف وشـحذ الهمم.

تلك هي حقيقة حب الوطن تقوم فرضيته على الوفاء لـه

في السر والعلن في القرب والبعد في السراء والضراء لا تناصر عليه تعادي من عاداه تبغض من يبغضه. تعزه يعزك لا تخذله أو تساوم عليه أو تقايض به ذلك غزل مغزول بغزل وثيق بين الإنسان وأرضه يوزعك استمساكاً به معتصماً بالله في رباه.

وإذا كان هذا حال الأوطان فما عسى حال حبنا لوطننا الذي شرفه المولى بمقدسات الإسلام تضم أرضه بيت الله العتيق وتحتوي تربته مثوى رسوله الكريم ﷺ أولانا الله خدمة تلك المقدسات ورعاية ضيوف الرحمن إلى مسجده الحرام حجاجاً ومعتمرين وزائري مسجد المصطفى ﷺ فهي مسؤولية اختص الله تعالى بها هذه البلاد يحملها كل مواطن سعودي مؤمن بها قولاً ويفعلها عملاً يشعر بتبعاتها تعبداً لله يبتغي رضوانه فهذا الوطن أولى الناس بحبنا والبر له وفاء لما يحوي من مقدسات مغروس غرساً إيمانياً ومضبوط بضوابط الدين تناوبتها الأمة مع متواليات السنين فكونت حباً غريزياً فطر عليه إنسان هذه الأرض لا يغادره حبه اقتضاء لشرف المكان امتلأت به النفوس رضاً واعتنقته قناعة إيمانية تذود عنه احتساباً وتتبع حيثيات مقامه أجمع الكل على حبه حباً مبرأ من ملوثات الأفكار وتباريح الأمزجة التي سقطت حججها أمام قوة حجج دين الله

وآخر رسالات السماء التي أتى بها الرسول الخاتم محمد بن عبدالله ﷺ وعلى من اتبعه واستن بسنته.

فقد صان الله هذه البلاد من خلافات الفكر وتعدد الأيدلوجيات التي تضعف حب الأوطان فأجمع الجميع على مجانبتها لأن في تعاليم دينها ما يغني عن الوقوع في أتون الصراعات والجدليات المتحررة التي لا تقيم وزناً لحب الوطن بل وحدة دين وارث ثقافي أصيل نابع من أصالة الأرض وتاريخها المجيد فلا مساومة على المحبة لأغلى أرض.

ففي هذه الرحاب تكونت علاقة مواطن توطن وطنه انعقدت به محبته ظاهرها كباطنها فمن يرفع شعارها ظاهراً عليه أن يتبعه بسلوك يشهد على ما في قلبه ليوافق عمله قوله .

إذاً الوطن مضمون وجداني استوى في النفس حباً لا يرتضي عنه بديلاً أرضه وناسه خلاصته المستحقة ميثاق وطني متفق على حصانته تحت أي ظرف أو زمان وبمقتضى الحب تتبلور معاني الوطنية ترعى قضايا الوطن التي يتربع الأمن على رأس قوائمها.

المواطنة والأمن:

يمثل الأمن قطب الرحى في الحياة العامة للشعوب ومطلب ضرورة وإلحاح غريزة لا يروق العيش في غيبته مما استدعى أن يتوفر الأمن على مستوى الفرد والجماعة ويمتد إلى صنائع الحياة ومناحي العيش يهيء الاستقرار الجمعي والأمان النفسي والاطمئنان على المعايش. ولما كان الأمن المطلق يصعب تحقيقه لكثرة التشعبات الحياتية وتشابك المنافع أو تعارضها فكان لابد من سلطة ضابطة تضبط السلوكيات والمعاملات على نحو تنظيمي يضمن مصالح الناس ويمنع الاعتداء على الحقوق وتحديد نقاط التماس بين المنافع فلا تسمح بالتجاوز أو العبث بالمقدرات وهو الدور الذي تضطلع به أجهزة الأمن إلا أن هذا الدور يظل في حاجة إلى دعم شعبي يقوي صلب العملية الأمنية وهو دور يقع على عاتق المجتمع يبدأ من المواطن وينتهي إليه.

إذاً العملية الأمنية تقوم أساساً على قطبين رئيسين:

الأول: أجهزة الأمن. والثاني: المجتمع.

أولاً: أجهزة الأمن:

هي التي يوكل إليها تنفيذ سياسة الدولة الأمنية لتأكيد سلطتها على ترابها تحمي البلاد ومصالح العباد من براثن الجريمة تتبعها لمنع وقوعها وتلاحق مرتكبيها صيانة للمجتمع من عبث العابثين تأميناً للسكينة وتحقيقاً للأمانة من كل ما ينذر بخطر على الإنسان أو يهدد مكتسباته وإلحاق الضرر بمنجزاته وموارد رزقه لا يستطيع بقدراته الفردية تحقيقها بانضباطية كافية إلا من خلال سلطة أمنية تكفل ضوابط أمنه وبسط عوامله. وهو ما تعتبره الدولة من أهم وظائفها الوطنية التي تقدمها للوطن تهيئ الأمان النفسي والاستقرار الجمعي لشعبها اطمئنان على المعايش وحماية من ملمات السوء لتسير الحياة مسارها الطبيعي دون انتكاسات أمنية أو منغصات حياتية تتعثر بها دورة الحياة الاعتيادية فتلجأ لفرض مجموعة من الإجراءات التنظيمية والقوانين الانضباطية لتتحقق معاني الأمن حزماً وجزماً صيانة للحرمات وحماية للممتلكات ذلك لأن الأمن أس الحياة بقوامه يحل الاستقرار الأمني ويشيع السلام الاجتماعي.

فلا يمكن الحديث عن بناء خطط التنمية إلا في جو مستقر على أساسه لتبني برامج الإصلاح والنماء الاقتصادي والتقدم

الحضاري هذا الدور تقوم به أجهزة الأمن في سلة مهامها الأساسية وهو مناط بالسلطة تفعله نتيجة على الأرض يلمه المواطن ويركن إليه المجتمع متصرفاً لمزاولة شؤون حياته مستظلاً بظل الأمان في أروقة وطنه قاعدتها الاستقرار وأركانها الطمأنينة وركيزتها الأمان.

ثانياً: المجتمع:

بداية أود التنويه إلى أن الصورة النمطية السائدة في مجتمعنا أن رجل الأمن هو وحده المناط به مسؤولية حفظ الأمن ويتحمل تبعات مهمته وربما تكونت هذه الصورة في الأذهان بسبب أن الشعب السعودي قامت دولته على أساس توطيد الأمن جاء من أولى أولويات اهتماماتها بلورة فكرة تقليدية استقرت في الأذهان وألفها الناس أن مسؤولية الأمن أحادية الجانب من واقع اختصاص أجهزة الأمن كون تلك الأجهزة كانت تقوم بمهامها من منطلق محدودية نطاقات الأحداث التي يتم السيطرة عليها في حينها بكفاية مجهودات لتلك الأجهزة إلا أنها ومع اتساع رقعة الأحداث وتنوع وقائعها وما طرأ عليها من استخدام وسائل حديثة فلم تعد جهود الأمن الرسمي كافية في عالم اليوم وحضارته والعصر ومتغيراته تلوثت فيها

المعاملات وتقولبت فيها المفهومات عصر تطورت فيه أساليب الجريمة وتنوعت مجالات الانحراف لقيت فيه الجريمة مرتعاً للتكاثر في محاضن السلوكيات المعوجة، فتحت الباب لأشكال من الجريمة صعدت من وضعها النمطي إلى مستوى أكثر تنظيماً تنفذ بمهنية احترافية جريمة منظمة تفاقمت تطوراتها حتى آل الحال ببعض المنظمات إلى اعتناق تنظيرات إرهابية وفلسفات عنيفة خياراً استراتيجياً لها طغت على سطح عالم اليوم فلا تكاد تصحو إلاّ على جديد فواجعها تستهدف الآمنين وتوقع بالأبرياء. ففي هذه الأجواء تضاعفت مسؤولية أجهزة الأمن التي يقع على عاتقها مسؤولية التصدي لها لكنه باتت في حاجة إلى دور مرادف يسند ظهرها ويدعم خلفياتها وهذا الدور يقع على المجتمع من خلال جهود متضافرة في سياق شراكة بين المؤسسة الأمنية والمواطن ومؤسسات المجتمع المدني.

فلم يعد الأمن حبيس مفهوم فرض كفاية يقوم على عاتق رجل الأمن ويسقط عن المجتمع لتتوازن معادلة المسؤولية الأمنية القائمة على نظرة متبادلة بين دور أمني ودور مجتمعي تتناسق أدواره وتنضبط إجراءاته في نظرية الأمن المجتمعي. توظف إمكاناتها لصالح مجهود أمني يصون البلاد والعباد من تهديدات

الزعزعة والاضطراب وفي ظل هذه الشراكة تتعزز النظرية ليتطور إلى ما هو أبعد من الهم الأمني الآني إلى ما هو مستقبلي تقرأ مؤشرات الحاضر لتستنبط ملامح القادم لتحمي الوطن من غي الجريمة المنظمة وما قد يطرأ من مفاجآت وفتن لتجنب البلاد أو باءها أو ما قد يعصف بحالة الاستقرار فيها وفق تخطيط استراتيجي أمني يراعى أبعاد المتغيرات والمستجدات فيما يسمى بالأمن الوطني الذي من أهم أغراضه تحقيق المصالح القصوى واحتواء المواقف احتواء وطنياً منسقاً بكفاءة عالية موجهاً تركيزه على بؤرة الأحداث يرسم إستراتيجيتها مراعياً ما يلي:

- تعبئة لقوى الوطن وحشد طاقاتها.
- جاهزية وطنية قادرة على مواجهة المفاجآت.
- تحليل منطقي بتوقعات فرضية يستنبطها من أوضاع محلية – إقليمية – دولية.
- التنبؤ بالمجهول من واقع معطيات ماثلة أو مؤشرات قد تفضي بما يدل على وقوع أحداث غامضة تعد حساباتها قبل وقوعها.
- ترقب تصاعد المشكلات قبل أن تصل ظواهر مزعجة

أو تحل أزمات كارثية يصعب معالجتها قد تكلف كثيراً من الوقت والجهد والإمكانات والأموال.

- تهيئة الجمهور وأعدادهم نفسياً لاحتمالات متوقعة ووضعهم في قوالب الأحداث مسبقاً وتحضيرهم لأسوء مضاعفاتها.

- تنمية الحس الوطني وإذكاء روح الانتماء للوطن.

تلك عوامل تضعها الإستراتيجية الأمنية في حساباتها لتجنب ردود الأفعال التي قد تكون أقسا وأضر من الحدث نفسه وتلافياً للعشوائيات والارتباكات المصاحبة للحوادث المفجعة المباغتة. لنخلص بنتيجة أن الأمن: يخط الخطى، لتكاتف، تكامل، تفعيل همم، حشد قوى، مشكلة وحدة وطن يستهدف وحدة هدف بروح المواطنة فالأمن مفعول المواطنة.

المنظور الإسلامي للمواطنة:

ذهبنا على أن المواطنة تجيء كأداة ربط بين الإنسان وأخيه الإنسان الذي يشاركه العيش في إقليم الدولة رابطة ألفتها عرى التواطن على الأرض وثقافة موروثة وتاريخ يترجم قيم وثوابت وحدتهم عليها في علاقة اكتسبت صفتها من الوطن

الذي ينتسبون إليه أوفرت بينهم تراحم وتآزر تجلت في حالة تعاطف تغمر ذلك الشخص الذي ينتمي لبلده ويحمل جنسيته ورأينا كيف أن الإسلام جاء أكثر شمولية من غيره مقرراً مفهوم المواطنة على أساس العقيدة لا العصبية أو القومية أو الجذور العرقية فمن لبس الثوب الإسلامي وعمر قلبه الإيمان واستوطن الأرض فهو في ديارها توفر له ضرورات الحياة وتنزله منزلة الأم الرؤوم، يتمتع في كنفها بحقوق وتفرض عليه واجبات تحت مظلة مبدأ الأخوة الإسلامية كما ورد في النص القرآني في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ (١)، وكما في الحديث (٢) (المؤمن أخو المؤمن)، وجاء عن ابن عباس – رضي الله عنهما – أن رسول الله ﷺ قال: (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً) (٣).

وقد حقق الإسلام هذا المفهوم بين أفراده فسلمان الفارسي وصهيب الرومي وبلال الإفريقي والمهاجرون والأنصار أخوة بأخوة الدين اكتسبوا مواطنتهم بمقتضى الدين لينخرط فيه الجميع لا فرق لعربي على عجمي إلا بالتقوى فالتقوى هي

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٠.

(٢) رواية البخاري.

(٣) رواية البخاري.

المعيار العام ضمن دولة الإسلام وفي عصرنا الحاضر مع مفهوم الدولة القطرية الحديثة ذات الحدود الجيوسياسية فرضت تبعية حصرية خاصة اقتصرت على الأشخاص الذين داخل حدودها أي تحديد مكاني لا يتمتع به إلا أولئك الذين يقطنون نطاقه لتنطبق على واحدهم صفة مواطن إلا أن هذه الخصوصية رغم انحصارها المكاني لم تستطع أن تلغي مبدأ الأخوة الإسلامية التي تجاوزت النطاقات الإقليمية ظل المسلم في أي بلد إسلامي يشاطر أخاه في بلد إسلامي آخر الشعور العام بالأخوة الإسلامية مع احتفاظه بشعور خاص للدولة التي يحمل جنسيتها مع بني قومه في أرض بلده الأصلي كونه مطبوع بطابعها. وهذا يعني أن هناك علاقة أخوة عامة يشترك فيها المسلمون على مختلف جنسياتهم فرضتها مشاعر وحدة الدين مع الاحتفاظ برباط الدم في البلد الأم.

وشاهد الحال ما نشاهده عند الجاليات الإسلامية في أقطارِ الدنيا تجدهم يحملون هم الإسلام شعوراً عاماً مع الاحتفاظ بخصوصية بلده فرابطة الإسلام رابطة عامة تتخللها رابطة خاصة يميل فيها المسلم إلى أهل بلده لا تنافي بينهما بل تعزز إحداهما مكانة الأخرى في نفسه وتقوي اعتزازه بهما معاً.

ففي المناسبات والاحتفالات والأعياد مثلاً تجد المسلم يلبس لباس وطنه ويقيم مظاهر احتفالية من وحي موروثه ويتصرف وفق ثقافة بلده ويميل إلى أبناء جلدته ينزع نزعتهم ويتجاذب الحديث بلهجتهم بحكم خصوصية الموروث المزروع داخله في مكان نشأته الأولى التي طبعت فيه أساساً خصوصية مع وجود طابعه الإسلامي موفقاً بين الحالتين الخصوصية والعمومية وهناك شواهد لا يتعارض فيها المظهران فمثلاً المسلم الذي لا يشاركك العيش على الأرض في نفس مكان الإقامة غير ذلك الذي يتقاسم معك الهم اليومي فيه، فأنت ملزم بأن تصرف اهتمامك للإثنين على وجه عام إلا أن اهتمامك بمن يقيم معك على صعيد الأرض ينصب عليه أولاً لأن حقه أوفر على قاعدة الأقربون أولى بالمعروف فالزكاة لا تخرج إلى خارج البلد فأهل البلد أولى بها إلا أن يكون هناك ضرورة موجبة أو فائض أموال.

وإيثار الأقربين بالمعروف قبل غيرهم أوجب ومن ثم من يليهم في إسداء المعروف وهو ما يأخذ تدرج الأحقية الخصوصية أولاً تليها العمومية ثانياً وبهذا فإن خصوصية الرعاية تتدرج في دوائر تضيق وتتسع إلى الأولى فالأولى

فالإنسان مسؤول عن رعاية أبنائه ثم أقاربه، ثم جيرانه فمن يقيم معه على الأرض (كلكم راع وكل راعي مسؤول عن رعيته) فالرعاية توجه في دائرة من هم أحق بها شرعاً ثم بعد تتسع لتشمل غيرهم في الأحقية في مواطن إسلامية بعيدة. فالفرق هنا ينظر إليه من قبيل اقتضاء الخصوصية المحلية دون أن تلغي اقتضاء العمومية أو إهمال الأخ المسلم في الأمصار أو تلك الأقليات المسلمة في بعيد البلدان وفي هذا يتم التوفيق بين مقتضيين الخصوصية والعمومية.

بهذا يمكن أن نستجلي من ذلك أن الإنسان مسكون بوطنه غلاوته ضاربة في أعماقه لا تبارحه وإن هاجر إلى أقطار الدنيا فهو يغليه كما يغلي ذاته فنجد أن القرآن الكريم قرن بين غلاوة الأرض وغلاوة النفس في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوٓا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾[1]. ففيها إشارة على أن مكانة الوطن كمكانة النفس وفي هذا تنويه على مدى تمسك الإنسان بالأرض كما يتمسك بالنفس.

إذاً الأصل الاعتزاز بأرض الوطن. هي غرس أصله ثابت

(١) سورة النساء، الآية: ٦٦.

في داخل الإنسان ذاب في عروق تربتها فلا مناص أن ينشأ ميل تلقائي يميله إلى وطنه أينما إتجه ونزل. وهو ما عبر عنه الشاعر الجاهلي حين قال:

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى

ما الحب إلا للحبيب الأول

كم منزل في الأرض يألفه الفتى

وحنينه أبداً لأول منزل

هذا التحليل المنطقي يوصلنا إلى نتيجة أن المواطنة تنحو منحى عام وآخر خاص فالأول ينضوي تحت لواء الدين كطابع عام مع الإبقاء على موروث خصوصي بتأثير البيئة الأساسية التي ورث موروثها بذرت فيه بذرتها واتصف بصفاتها باعتبارها أولى مراتع حياته امتص شربتها وهو ما يؤصل صفة خصوصية الانتماء للأوطان.

القسم الثالث

صفة الانتماء للوطن

صفة الانتماء للوطن

الانتماء للوطن تكييف حقوقي وصفي يتصف به الشخص فيسمى باسم البلد الذي ينتمي إليه كأن يطلق عليه سعودي أو مصري أو يمني وهلم جرا، يقر له بحقوق على الوطن بحكم انتسابه له وهو بدوره يحسب نفسه على وطنه يوجب واجبات للوطن عليه معادلاً بين ما تقضي به موجبات الانتساب حقاً أو واجباً، فهو احتساب مرتد بين منتمي ومنتمى إليه، فالمنتمي هو المواطن تقع عليه لزوميات معتبرة يحترم فيها اسم بلده ورفعة شأنه وخدمة مصالحه. والمنتمى إليه هو الوطن الذي يحمل اسمه ويلبس لباس هويته يحترم إنسانيته وضمان حرياته وممارسة شعائره ويضمن له أماناً نفسياً وتكسباً بغنية عن العيلة وعيلة بتوفير أسباب العيش كحق له في وطنه.

إن العبرة في تحقيق الصفة الحقيقية للانتماء ليس بحمل الهوية التي يستحق بها حاملها صفة مواطن فحسب إنما العبرة تكمن في أن يقف الإنسان نفسه على خط متوازن بين استحقاقات حمل الهوية والاعتبارات المترتبة عليها كالاعتزاز بحملها يفاخر بها يرفع شعار رايتها فمن ينتمي للوطن ملزم بأن

يتصف بصفاته ويتقبل وصايته وصاية رعوية تقع عليه تبعات هذا الانتماء فالمرء لا يعرف إلا بانتمائه لموطنه ولا يسمى إلا به بل إن أول ما يسألك الذي لا يعرفك فيبادرك أولاً من أي القوم أنت أو ما هو بلدك أي ما هي جنسيتك؟ فلا يأنس إليك حتى يستعلم عن موئل وطنك ولا يطمئن للتعامل معك إذا جهل جنسيتك فلولا الانتماء للوطن هل تراك قادراً على الاستئناس مع غيرك من البشر فإن لم يكن لك انتماء لوطن فسوف لا يعيرك سائلك اهتماماً فمن أمن لك هذا الاحترام في نظر الغير؟ ومن وفر لك هذا الاعتبار الانتمائي؟ غير وطنك الذي ولدت على أرضه أو نشأت في أحضانه رباك طفلاً وشد أزرك يافعاً وصاغك فاعلاً مرفوع الرأس لبى احتياجاتك وأمن مقومات حياتك بعد الله سوى الوطن الذي تنتمي إليه انتماءً وطنياً وانتساباً صادقاً ووعداً مخلصاً بعهوده ومن منحك اعتباراً قانونياً وقواماً معتبراً؟ أليس صفة الانتماء لوطنك؟ هكذا يتجسد مفهوم الانتماء بحسب الإنسان نفسه على وطنه الذي اكتسى أرومته ألبسك لباسه وأوصفك صفاته وطبعك بطباعه فأستحقيت حمل جنسيته التي تعبر عنها باسم الهوية الوطنية مضمونة بالواجبات التي يستوجبها الوطن وبالحقوق التي

يستحقها المواطن.

فكيف ترسخ مدلول الانتماء إلا عن طريق سلوكيات منظمة نفعلها في المناشط الاجتماعية والمناسبات الاحتفالية واللقاءات الجماعية مطعمة بإيحاءات من وحي الوطن لتتربى عليها النفوس وسلوك عادة مع الوقت نفعلها من خلال وضع تنظيمي لتربية وطنية على مستوى الوطن.

التربية الوطنية:

هي عملية تكييف فكر مجتمعي وفق منطق الانفعال والتفاعل في الوطن نستشعر قضاياه ليبرز قضية فوق كل القضايا وهماً فوق كل الهموم فلا صوت يعلو صوت الوطن إلا صوت الحق المبين ولا مصلحة تفوق مصالحه إلا ما كان حق شرعي، نبلوره وعياً وطنياً جمعاً لا تفرداً، قد يتبادر إلى الذهن أنها مهمة المدارس ودور التعليم. أي نعم هي معنية بتشكيل العقول وتنوير الفكر، لكنها ليست وحدها من يقوم بالمهمة فهي جزء من كيان عام فالمهمة جماعية وعلائق أدوارها متعددة حسبها أنها لا تضطلع بها جهة أو شريحة دون أخرى وعلى هذا النحو الكل مطالب بأن يسهم فيها بدور تتلاقى أبعاد أدوارها في مصب الوطن. فليست مقصورة على الدولة بمفردها بل

يتعين أن تشعر كل شريحة أو فئة أو مجموعة صغرت أم كبرت أنها مختصة بها.

فمن أين تنطلق نقطة البداية للتربية الوطنية؟:

لتبدأ من أساسيات المنشأ المنزلي وبدايات التعليم المعرفي ومؤسسات المجتمع ومرافق الأنشطة الشبابية والثقافية والأندية الرياضية والأدبية والتجمعات الرسمية والمنتديات والجمعيات ومراكز البحث الاجتماعية والمؤتمرات والندوات والملتقيات الجماعية. ولا يتوقف على هذا فحسب بل تمتد إلى الهيئات والشركات والمجمعات ثم ينسحب إلى بيئات العمل مسحوب إلى الإصدارات والروايات والإعلام بوسائله المتحركة والساكنة والمساجد ووعاظها وأهل العلم وطلبتهم. تلك الفعاليات مدعوة بالمشاركة في ترسيخ مضمون التربية الوطنية لتوضع نصب الأعين لخلق مجالاً محفزاً للأخذ بناصية التربية الوطنية مدخلاً لمعنى الوفاق الوطني، بين أبناء اللحمة الواحدة بمفهومية فكر وطني عام يلبس ثوب الوطن بمكوناته المادية والمعنوية ومعايير الأمة وأصالتها لتتكون بزينة وطنية في الفرد.

فالفرد مسؤول والجماعة مسؤولة وفئات المجتمع مسؤولة عن توثيق عوامل التماسك وهو عهد على المواطن تجاه وطنه.

ولقد عني الإسلام بتنمية الشعور بالمسؤولية بين أفراد الأمة أياً كان موقع الفرد، قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾[1]. ليتحول الشعور الفردي بالتضامن إلى شعور جماعي بالتظافر في نطاق عمل شراكة جماعية. ولكي يتم بلوغ هذا الهدف ينبغي زرع جذره في عقول النشء وتقويته في أذهان الشباب.

فكان لزاماً أن تتناسق التنظيمات في نسق اجتماعي موحد لصياغة فكر ممنهج في دائرة الوطن تبدأ متصاعدة من الأسرة التي تلعب دوراً أساسياً حيث يقع عليها عبء البدايات التربوية لأنها المحضن التربوي الذي تزرع فيه البذرات الأولية للروح الوطنية وفيها يلقن المرء أساسيات معارفه وانطباعات وقواعد سلوكياته ومكوناته النفسية ومعتقداته الدينية وفي مجتمع الأسرة يتعلم صدق المعاملة مع الآخرين وحسن الآداب والأخلاق الفاضلة ثم ينتقل إلى طور أوسع بالتعليم المنظم هو دور المدرسة لتواصل ما بدأه المنزل ويتعاون الطرفان في بناء فكر الفضيلة والأخلاق الحميدة، وهنا تبدو مسؤولية عظمى من حيث التأهيل والصقل العلمي والإصلاح التربوي الذي يتطور مع

(١) سورة الإسراء، الآية: ٣٤.

المراحل العمرية؛ فالمدرسة أداة تكييف اجتماعي، وهذا ما تحرص عليه المؤسسات التعليمية في بلادنا، وهو ما تنشده القيادة الرشيدة وتضطلع به وزارة التربية والتعليم التي لا تألو جهداً لبلوغ منشود الأهداف.

وتتسلسل العملية التربوية فلا تقتصر على البيت والمدرسة فهناك أدوار أخرى مكملة لها كدور المسجد، كونه مكان للعبادة فهو أيضاً مكان لإلقاء المواعظ والإرشاد وتصحيح الأخطاء في الحي ناهيك عن منبر خطب يوم الجمعة متناولة المشاكل الاجتماعية وسبل الصلاح تلقي الضوء على تزكية النفس والجرائم وطرق الوقاية منها وحث المسلمين على العمل الصالح والتفاف الصفوف بعمل جماعي لأن يد الله مع الجماعة وتذكيرهم بما يحض على الالتزام بتعاليم الدين الحنيف ومكارم الأخلاق وتقوية الوازع الإيماني والبعد عن أعمال الشر والتركيز على التثقيف الديني والظواهر السالبة وطرق معالجتها وهو بذلك يشكل عاملاً من عوامل التربية الوطنية.

وليس الإعلام عن هذا ببعيد فدوره هام في التحصين الفكري ونشر ثقافة العمل الجماعي فالإعلام أضحى جزءاً من حياة البشر يعبر عن اتجاهاتهم ونبض حسهم الفكري ويحث

المتلقين على أسس الفضيلة وحسن التعامل وترسخ مفاهيم القيم والأخلاق السوية يتناول القضايا بطرق سليمة موجهة للناشئة خاصة لأنهم عدة الوطن وقاعدة مستقبله.

فأجهزة الإعلام تمثل أداة جيدة لما لها من تأثير قوي في النفوس وغرس القيم النبيلة والتقاليد الأصلية وفي هذا الصدد كان لابد من القيام بعمل منسق بينها وبين أجهزة الأمن لتوثيق معاني الأمن بالإعلام، للاستعانة بالدعاة والمصلحين والمفكرين المشتغلين بالإصلاح الاجتماعي لتبصير الناس بما يصلح شأنهم ونبذ الخلافات ودعم الخروج عن طوع وطنهم عن طريق برامج مخططة لإشاعة وعي عام تحضهم ضد فيروسات الثقافات الوافدة مع موجة الانفتاح الإعلامي التي تصوغها نظريات وفلسفات غلبت عليها شقوتها الفكرية تشجع لسلوكيات منحرفة تضلل بها المتلقين وتدغدغ بها غرائز الشباب تداعب أحلامهم تقدم لهم الرذيلة في طبق شهي لإلهائهم عن التفاعل مع قضايا الوطن [1].

وعلى هذا فإن الإعلام يقع عليه مسؤولية كبيرة يدركها

(١) الأمن والإعلام للمؤلف، الناشر، دار طويق للنشر والتوزيع، الرياض.

الإعلاميون يكمل بها توجهات المؤسسات الاجتماعية.

وتتعدد سبل إذكاء المواطنة تتضافر من أجلها الجهود لتصوغ فكراً وطنياً في إطاره تصبح البنية المواطنية مسؤولية جماعية يؤدي فيها كل دوره فرداً أو جماعة سلطة أو هيئة أو مؤسسة كل في موقعه بطريقة تكاملية متجانسة تحفظ توازن الأدوار كروافد في مصب فكر تربوي يحق أن ندعوه نهجاً وطنياً بمفعوله التأثيري وقدرته على النهوض بفكرة تربية وطنية متحدة رؤاها تحرسها ثقافة شعب آمن بوحدة الانتماء إلى وطنه.

فلا ينبغي أن نقعر التربية الوطنية على القنوات الرسمية والمؤسساتية فقط فمسؤوليتها بنفس درجة أهميتها تتواصل سواء في أماكن العمل أو مجالس الأصحاب والرفاق ومن الأخ لأخيه والزميل لزميله ومن الكبير للصغير ومن الآباء والأمهات لأبنائهم ومن الجار لجاره.

فإذا بلغت التربية الوطنية درجة هذا القدر من الوعي المؤسسي يطرح مشروعاً وطنياً تتبناه المؤسسات الحكومية والأهلية تنظم أطره ولوائحه تأسس بناءاً عليه برامج متنوعة تتناسب مع النشاطات تعليمية كانت أو إرشادية تناصحية تتداول نمطاً توعوياً عاماً يشكل لنموذجية تربية وطنية واعية

لأهمية ما ترمي إليه. فعلى قدر أهل العزم تأتي العزائم فبقدر إتقان إعداد البرامج ودقة جذبها للمستهدفين بها تأتي أكلها التأثرية مولدة ذهنية الوطنية قناعة بفكرتها مرتبط نجاحها بإتقان تفعيل الأدوار، فإذا استقرت الفكرة بإحسان توجيهها فستكون أداة إشعال يلهم حساً وطنياً يعايش واقع الوطن فالحس الوطني يمثل مرتكز المواطنة.

القسم الرابع

الحس الوطني

الحس الوطني

هلا تعمر الأوطان إلا بسواعد أبنائها وتقوم صروح البلدان إلا على أكتاف ناسها؟ هم الذين يصنعون التاريخ ويتصانعون مع الزمن فهم قدر الوطن وهو قدرهم ليس لأي منهما إمكانية التخلص من الآخر بفضل الارتباط الوثيق المعقود بينهم. هكذا الوطن سياق معادلة أطرافها أرض وإنسان موثوقة بعروة الدين مشبعة بفضائل الأخلاق متوائمة في فضاء الوطن يترجمونها تعاملات صادقة وممارسات متضامنة ينشأ عنها شعور غامر يملأ النفس ويعمر به الفؤاد وينشغل به القلب يحرص الفرد على وطنه حرصه على نفسه وبنيه وأمواله ويخاف عليه خوفه على أهله وذويه كون الوطن مأوى سكنه ومكان تقلبه ومقر إقامته واستقراره ومصدر رزقه وحيوية معاشه.

لذلك حق أن نطلق على هذا الشعور شعوراً وطنياً أو لنقل حساً وطنياً وطالما هو متأصل بالوطن ونابع منه فهو الحس الوطني عبارة مركبة من لفظين (الحس – الوطن).

- الحس من التحسس وهو الطلب والبحث.

والأصل فيه إدراك الأشياء بإحدى الحواس الخمس فهو

حس ظاهر ملموس (وعي إدراكي).

فإن لم يكن مدركاً إدراكاً حقيقياً فهو حس خفي مستتر عن الحواس الأصلية (إدراكي حسي) يستشعر وجود شيء ما غير ظاهر بعينه يتنبئ به حساً ولا يلمسه فعلاً يستحث الإنسان للبحث فيه لإخراجه من كونه حدس باطن إلى ملموس ظاهر.

وهذا يعني أن الحس أما شيئاً يقينياً ملموساً أو تحمينياً محسوساً يحوك في النفس يلفت الانتباه إليه يصعد تلقائياً إلى عملية ذهنية تبدأ بالتخمين ثم الاستشعار تلعب فيه ظروف الحال ومجريات الأحداث والأوضاع المحيطة وما يحيط به من شواهد ترفعه إلى درجة الاشتباه بمضمونه يظل يلح في البحث عنه حتى يصل به إلى نقطة تنقله من مرحلة الحدس إلى واقع يقيني فإما فعل يأنسه وإلا فعل يثير قلقه يتعين عليه التعامل معه فمتى يصل الإنسان لهذه الدرجة من الإحساس فيعني أنه مستيقظ الحس يدرك ما يشكل خطراً عليه خاصة ومن حوله عامة. فهذه صفة الإحساس.

- وأما الوطني: نسبة للوطن ذلك المكان الذي يعيش فيه الإنسان وبتلازم المفردتين (الحس - الوطن) تكون مصطلح الحس الوطني هماً يوقع في النفس انشغالاً بمن تحمل همه

فبمقتضى حمل الهم يستبطنه هاجس يتحسس به ما قد يصيبه من مكاره أو تضرّ به مسافة أضرار. همه حسية أوزعت الإنسان لاستيعاب هم وطنه متحسساً ما يحيط به.

فكم من الأفعال الملفوفة بلفافات خبث الطوية والتصرفات العبثية عشوائية مردودها غير محمود العواقب تصدر من أشخاص غير آبهين بنتائجها أو غير مدركين لانعكاساتها أو يضمرون سوء تهضم حق الوطن أو تشق صفه أو تعبث بمقدراته وتنتقص من الواجب نحوه أو تتربص به أو تكِنّ له سوء النوايا لتفرق جمعه أو تشرخ جدار توافقه وتبدد مكتسبات حضارته وتعيث فساداً فيه أو تقلل من شأنه وتعتدي على حرماته وفضائل قيمه أو تقوض سلامة وحدته وزعزعة أمنه واستقراره بإشاعة الخوف والفزع بين أركانه أو تخلخل نمط حياته تلك أفعال وغيرها ترسخ ملامح خطورة غير منظورة مطلوب أن يدركها المواطن بغطنته ويستعلمها بحسه يستجلي غموضها ويكشف مآربها يساند بها سلطات الدولة لاحتوائها والتعامل معها قبل أن يتسع نطاقها. فهنا مكمن الحس الوطني.

مما يثبت بصورة جلية أن الوطن يظل هماً في كيان المواطن وهاجساً في داخله يخاف عليه ويخشى أن تهتز أطرافه

يستضمر الضمير حساً متحفزاً لا تخبو جذوته وشعوراً ظاهراً لا تغفو شعلته تفاعلاً مع قضايا أمته مدركاً أن وجوده على هذه الأرض منحه عزة ووفر له قيمة. إذاً أين تكمن الهمة أليس في المحافظة على هذا الوطن وكيف تحافظ عليه أليس بتعزيز عوامل أمنه؟

ماذا يعني أن يكون هناك أمن فالأمن شجرة مظلة تفرز أماناً نفسياً للفرد واطمئناناً على المال والعرض والعقل والدين التي كفلتها الشريعة فإن توفر ذلك فهو ما يعني أن المظلة يتسع ظلالها لتظلل الأرض ومن عليها.

لذلك فحس الفرد يصب في حس الجماعة وحس الجماعة يدعم حس الفرد محصلته من هذا إحساساً جماعياً فهذا يلاحظ وذاك يراقب وآخر يحلل وغيره يفند ما حوله ويحاول أن يكشف ما التبس وهو ما يتماشى مع قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾[1]، والكل يضع نفسه موضع رجل

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٣٦.

وعلى ذلك فالشخص مسؤول أن يذكي في نفسه حاسة السمع أي ما يسمع، وحاسة البصر أي ما يبصر والفؤاد يحلل ما يعرض له ليبلغ عما شاهد أو سمع ومما يشكل ريبة أو شبهة قد يضار بها الوطن ترجع عليه أضراره فإن لم يوظف =

أمن في موقعه متواصلاً مع أجهزة الأمن مبلغاً ومسانداً ولا يتردد أن يدلي بمعلومات عما يشعر أنه غير مأمون العواقب هنا تبرز أهمية الإحساس بالوطن.

وفي هذا التضافر نستطيع أن نضيق الخناق على ما يسوؤه وسد منافذ الجريمة وكشف أستار مروجيها وتعقب مريديها وحصرها في دوائر ضيقة حتى لا تستشري في الوسط الاجتماعي.

فالمواطن بحسه الوطني يكرس معاني الحفاظ على الوطن وتماسك أوساطه. فالحس الوطني أن يعيش الوطن داخلنا كما نحن نعيش داخله ومن خلال تكريس مفهوم الحس الوطني ينبثق منه حساً أمنياً يراهن على تطويق الإرهاب وأعمال العنف ومحاصرة الجريمة المنظمة التي يعاني منها عالم اليوم فنحول دونها ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً فيه تستيقظ ملكة الحس الأمني فما هو الحس الأمني إذاً؟

=

حسه فهو المتضرر منه ينعكس عليه أثره مما يوزعه أن يكون عوناً لأجهزة الأمن لتطويقها قبل تفاقمها ولجمها قبل حلولها فلا يستقل أثراً مهما قل أو يستكثر جهداً مهما كثر ما دام في مصلحة الوطن.

الإحساس «الحس الأمني»:

نزعة حس أصلها الخشية من المجهول (قيل في الأمثال: قلب المؤمن دليله) أي يحس بما يدور حوله تحسباً لما قد تزداد جرعة الحس إذا ارتادته روعة منه تراوده نفسه في كشف حجبه، فإما خطراً يحذره أو سلامة يبلغ فيها مأمنه، فالأمن هو القاعدة التي ينطلق منها لتصريف شؤون حياته مفره يستوي في ذلك أمن النفس أو المكان لأن النفس لا تطمئن إلا في مكان آمن وهو ما نعني به الوطن فمردود الأمن على الإنسان وعلى معايشه ما يجعله في وضع استيقاظ دائم موظفاً مدركاته لتوطيده أمانه فيما نطلق عليه:

الحس الأمني: البعض يسميه الحاسة السادسة تجاوزاً (أو لنقل أنها الحاسة الخفية). إذ أضافوها إلى الحواس الخمس الأساسية في الإنسان وهي السمع، البصر، الشم، الذوق، اللمس + الإحساس الباطن أي الحس الإدراكي. بما يتوقع حدوثه جراء تصرفات أو أفعال غريبة تبعث على الشك بوجود شيء غامض غير ملموس بالجوارح المعتادة تحسه النفس إحساساً خفياً تحرك بواعث الحفيظة تستدعي انتباهه يدق ناقوس الفزع من احتمال وقوع خطر يضطرب به حاله أو يمس

أمن بلده تفزع له فرائسه فزعاً غريزياً تنقبض لـه نفـسه في لأنـه غير مُدرك إدراكاً مباشراً يستنفره لاستقصاء خـبره كـأن يكـون الإنسان في معزل وفجأة يسمع ضجيجاً أو صوت خبطات لمواد ساقطة من علو أو تجمعات حاشدة أو أفعال تثير انتباهه فيبـادر لمعرفة خبرها فقد يجدها أفعال ذات طابع اعتيادي فيطمئن لها.

والعكس من ذلك فقد تستقصيه فلا تجد له أثراً مادياً يدل عليه فتتوجس منه خيفة توقعاً لـسوء نتيجتـه أو يـساورك شـك تتلبث منه النفس فزعاً ما يعـني أنـه مثـار ريبـة تتوقعهـا عليـك شخصياً أو على بلدك أو ما قد يفضي بوقوع جريمة أو في طـور الإعداد لها.

هنا يستنفر الإنسان ملكاته الذهنيـة والنفـسية ويـستجمع تجاربه وخبراته السابقة يقارن بينها وبـين مـا أثـار شـكوكه مـن تصرفات فردية أو سـلوكيات ثنائيـة أو عبثيـات جماعيـة أو أيـة ملاحظات أو مؤشرات ربما كانت مقدمة لعمل غـير طبيعـي أو حركة مشبوهة. كأن تـشاهد شخـصاً يمـشي مترقبـاً تبـدو عليـه علامات الحذر والتحفظ فهـو إمـا أن يكـون خائفـاً مـن شـيء يهدده أو ينوي الإقدام على فعل يخشى أن ينفضح أمره.

فالمجرم مهما حـاول إخفـاء نوايـاه فلابـد أن تـصدر منـه

انفعالات داخلية تثير الشبهة حوله تنفعل لها فوراً مجسات الحاسة السادسة (ملكة الإدراك الحسي). بفعل عملية الاستلهام الداخلي. وهي بين رجال الأمن أكثر تركيزاً من غيرهم لكن لا ينبغي أن يكون غائباً قدر من التركيز عند المواطن لينتبه لما يدور حوله بإعداد نفسه إعداداً حسياً يوظف ملكة الحاسة السادسة إحساساً أمنياً ليتحسس ما يريبه أو ما يعرض أمن بلده باستثارة مدركاته ليتمكن من استباق الأحداث قبل وقوعها يستنبط مدلولاتها محللاً رموزها مفككاً شفراتها باستخدام عوامل ربط بين الواقع وما هو متوقع وهي عملية تنقية ذهنية لما هو ظني أو يقيني وفي كلا الحالتين هي محل خشية يشحذ قواه ليستقرأ ما يحاك من المستخفيات وراء غوامض الأفعال المريبة لا يحضرها مهما بدت متواضعة والظواهر مهما غدت صغيرة فما لا يدرك بالحس المباشر يمكن إدراكه بالحس الباطن ليساعد على دفع خطره قبل أن يستفحل أو يقع ما لا تحمد عقباه.

فهذا يقودنا إلى استنتاج أن يقظة المواطن الحسية ومهارة رجال الأمن برهافة حسهم الحرفي يمكن تطويق المحدثات المشبوهة واحتوائها قبل نضوج طبختها التي تعد في مطابخ الشر. فمهما استخفى خفاؤها فلابد لها من إشارات يدركها

أولئك الذين أنعم الله عليهم بنظر ثاقب يتنبؤن بها بقراءة إشارتها هم المتوسمون أهل الفراسة. أولئك الذين وصفهم القرآن بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [1]، فقيل هم المتفرسين في الأمور. وهم الذين قال فيهم المصطفى ﷺ فيما روي عن أبي سعيد الخدري: (اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله) [2].

ويمكن بهذا المنطق أن نصل إلى تعريف وصفي للحس الأمني إذ يمكن أن نقول: هو ما يطرق الخاطر ويقبع في الباطن تفزع النفس حذراً منه. يستنفر المرء قواه لإجلاء غموض ملامحه ويقرأ مؤشراته مستوضحاً أمره. تحسباً لما يمكن أن يفرزه من خطر على أمن بلده لتمريره بسرعة على جهات الاختصاص الأمني لتتعامل معه وفق حساباتها المهنية لتطويقه قبل أن يقع.

فمن علم عن تجمعات غير معتادة وخارجة عن الأعراف التقليدية أو حالات مضطربة أو حشد أدوات مشبوهة أو

---

(١) سورة الحجر، الآية: ٧٥.

(٢) رواه الترمذي وقال لا نعرفه غلا من هذا الوجه. كما أورده ابن كثير في معرض تفسير للآية.

أصوات مؤدية أو نشاطات غير مألوفة وتخزين مواد وأسلحة وذخائر أو تصرفات وسلوكيات ينفر منها الطبع العام تنبئ عن إمكانية وقوع أفعال غامضة أو من يشاهد سيارة مركونة تصدر منها أصوات غريبة أو تنبعث منها رائحة غازات أو مغطاة بطريقة تدعو للاشتباه أو محملة بمعدات غير معروفة وحركات غير معتادة من الأفعال والأقوال وهمهمات هامسة وهمسات وإشارات تثير القلق أو شواهد غير مريحة أو شيء ما يجري الإعداد له قد يلحق ضرراً بالبلاد وناسها ومصالحها وضرب سكون أمنها. فهذا هو الحس الأمني الذي من المفترض أن يتمتع به كل مواطن فيسارع إلى الإبلاغ عما يعرض له ويشك به من أحداث أو تصرفات لتبادر أجهزة الأمن للتدخل السريع فيها.

هكذا يكون الحس الأمني أداة وقاية من أعمال الشر والنوايا السيئة.

تنشيط ملكة الحس الأمني:

ولأنها غريزة بشرية فهي متفاوتة الدرجة تتفاوت ملكاتها بين الناس فهي ليست بمقدار واحد بينهم بحكم الفوارق الطبيعية بين البشر فتختلف من شخص لآخر إلا أنه يمكن تنشيطها ببعض العوامل لو أحسن تركيز العمل بها:

- **التجربة العمرية:** أي أن سنين العمر تلعب دوراً في قدرة الإنسان للتفريق بين غث وسمين وطيب وخبيث بحكم ما اكتسب الإنسان من خبرة، فالبالغ يستطيع أن يميز الأحداث ويفسر معطياتها ثم يتوقع انعكاساتها عليه شخصياً أو على محيطه، بعكس الصغير أو القاصر.

- **التجربة العملية:** التجارب تفعل المهارات وتكسب الخبرات ليستفيد منها الإنسان في تفنيد المشتبهات وتحليل التصرفات التي تجري حوله للتنبؤ بما تجره من ويلات فبعض الأفعال والتصرفات الغامضة يدركها ذوي خبرة وأصحاب تجارب أمور الحياة وهي أكثر تركيزاً بين رجال الأمن بحكم ميدان عملهم.

- **سرعة الاستجابة:** كثير من السلوكيات والحركات تنحى منحاً جانبياً غير مباشر مندرجة تحت أعمال طبيعية. كأن تكون احتفالية عامة يندس فيها بعض المخربين أو المفسدين تصدر عنهم حركات مستغربة تغطيه للقيام بعملية تخريب. فهناك من الناس ذو الحس النشط يشحذ حسه سريعاً لالتقاط المؤشرات المريبة مستوحياً ما ستؤول إليه. وعلى قدر رهافة الحس تكون القدرة على التنبؤ بما يمكن أن يقع كأنه شاهد

حركة غير مألوفة من شخص أو أكثر يحاولون أن يتواروا عن الأعين فتقع في نفسه احتمالات الشك في سلامة نياتهم.

- **درجة الثقافة:** فالثقافة والاطلاع على بعض القصص البوليسية والحوادث الجنائية الروائية تُكوِّن مخزوناً معرفياً لدى قرائها تطلعهم على التجارب الحقيقية أو الخيالية تساعد قدرة الشخص على التمييز وترفع درجة ملكة حسه.

- **درجة المهارة:** وهي صفة يتفرد بها رجال الأمن بحكم ممارستهم للعمل الأمني تمكنهم في كثير من الحالات من قراءة أفكار المشبوهين والمبلغ عنهم والتعرف عليهم حسب نوعية أساليبهم وسوابقهم الإجرامية ووسائلهم التنفيذية ومصنفاتهم الجنائية.

ومن الحقائق الثابتة أن الملكات الحسية متفاوتة بين البشر أي ليست بنفس القوة لدى كل الناس فهي تختلف من إنسان لآخر وبحسب نشاطها فيه تكون يقظته أسرع في الاستجابة للظواهر من حوله وتحليل مؤشراتها فمن شخص يستقبلها بسرعة ويتفاعل معها وآخر يقابلها بدرجة أضعف فلا يعيرها اهتماماً كافياً وثالث لا يعيرها أدنى انتباه فلا تستثيره ولا يأبه بها.

وهذا الأخير نراه في الغالب يعض أصابع الندم ويجلد ذاته إذا ما وقع مكروه لبلده فيوخزه ضميره ويتساءل في داخله كيف لم ألاحظ هذا وقد كنت أسمع ما يقال وأشاهد من السلوكيات كذا وكذا وهنا يكتشف نقاط ضعف حسه الأمني ويعقد العزم على أن يسد نقاط الغفلة فيه ويفك الارتباط بينه وبين ما فرط بحق وطنه ولكن بعد فوات الأوان مما يتوجب أن يدرب الإنسان نفسه ويحسن مهاراته للتفاعل مع المؤشرات السالبة في محيطه ويوقظ ملكة حسه تفاعلاً مع قضايا وطنه يعايشها معايشة مشاركة مدركاً أهمية توظيف حسه لصالح الأمن.

ما أهمية الحس الأمني في حياة المجتمع؟

لما أن الأمن ضرورة حياتية ترتبط به حياة الجماعات ترابطاً غريزياً كما قررنا فالعملية الأمنية تبدأ من ذات الفرد ثم تتسع في وضع تفاعلي مع الغير تتكامل دائرتها على مستوى الوطن حين يشعر كل فرد أن أمنه مرتبط بأمن مواطنيه يكرس مشاركاته ما يعني أن الوطن يعول على المواطن ليعتبر نفسه شريكاً أساسياً في مهام الوطن.

فالأمة التي لا تحافظ على أمنها لا تقوم لها حياة آمنة

والخائفون لا يستطيعون مزاولة حياتهم فالأمن أُس قاعدي لسكون الشؤون الحياتية فإذا ما استقر هذا الإحساس في الفرد ونما في داخله هذا الشعور بأهمية الأمن فإن ثمرته عيشاً هادئاً ونمواً مضطرداً مضاداً لما يعكر صفو الأمان فكل ما كان الحرص شديداً والتعاون متبادلاً كان العمل الأمني إيجابياً وناجحاً بل أسرع في كشف ما يهددهم بالخطر وهنا يمثل دور المواطن رأس حربة تواجه العبث قبل تماديه وصد الجريمة قبل تفاقمها ورصد الأعمال الإرهابية وأعمال العنف وكشفها قبل وقوعها.

وعلى هذا المنوال ظهر مفهوم الأمن الشمولي حيث صوغت ظهور مصطلحات اشتقت من معنى الأمن عمت جوانب الحياة المختلفة كالأمن الصناعي والأمن الغذائي والأمن الصحي والأمن الاقتصادي... الخ أدت إلى قيام وظائف ألقت بتبعية لا تقتصر على أجهزة الأمن فحسب بل ضمت مكونات المجتمع المدني ليقوم كل مسؤولية تعاونيه كرس مفهومها الإسلام قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾[1] شمل الفرد والأسرة وفئات المجتمع بتفرعاته.

(١) سورة المائدة، الآية: ٢.

وفي سياقه ترتسم أهمية غرس مضامين الأمن لتنتظم تحت سقفه مبرة الحياة في نسق تضامني منتظم لبسط الاستقرار في أرجاء الوطن يدحض باطل المستهترين بحق الوطن وعناصر قوته أولئك الذين لا يقيمون للحياة وزناً ولا يرقبون للناس إلا ولا ذمة ويعيثون في الأرض فساداً يحيلون بأعمالهم الإرهابية الأمان خوفاً والسكون اضطراباً والهدوء توتراً وقلقاً. لينعم الناس بنعمة الأمن التي أنعم الله بها على العباد بعد أن استخلفهم في الأرض وهو ما وعدهم الله به بقوله تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾[1].

وما ذلك إلا لأن الأمن لا يتأتى إلا بتعاون الفرد والجماعة قولاً وعملاً ملتزمين بعمل جماعي مشترك لتفعيله وتوطيد أواصره على مختلف صوره المادية والمعنوية وأشكاله الفردية والجماعية وتنوعاته النفسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية لتحييد عوامل الخوف بأطره الإجرامية وتطوراته التصاعدية التي من منطلقها بدت أهمية الحس الأمني كخط

(١) سورة النور، الآية: ٥٥.

دفاع أولي يكبح انتشار الجريمة ويحاصر منافذ الثغرات التي قد يتسلل منها المجرمون ويلج منها المخربون فطالما كان المواطن مدركاً لدوره كان الأمن محققاً على الأرض بمشاركة بين الطرفين يفعله الفرد وترعاه الجماعة كيفاً وكماً وحسباناً وطنياً مسؤولاً فمن واقع التآزر تتأكد فكرة الشراكة في نسق جماعي كالجسد الواحد كما شبهه رسول ﷺ في الحديث: (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى) [1].

إنه المجتمع المتحد يداً بيد في وجه ما يفسد على العباد سكونهم ووداعة عيشهم ومما يعزز دور الأمن المشترك ذلك الدور المتمثل في التواصي بالمعروف والتناهي عن المنكر امتثالاً لقوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [2].

وجاء في الحديث: (من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف

(١) رواه مسلم.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١١٠.

الإيمان)[1].

وفحوى ذلك إجمالاً أن الإنسان مكلف بالنهي عن الممارسات الخارجة عن تعاليم الدين والقيم والأعراف المشروعة ولما أن الجرائم والترويج للمنكرات المشبعة بانحرافات فكرية ترعرع من حضنها مستجدات الجرائم المنظمة ولما أن الإرهاب من فظائع المنكرات لما ينطوي عليه من زعزعة لأمان الناس وترويعهم وانتهاك حرماتهم بقتل الأنفس بغير وجه حق وضرب الاقتصاد والمكتسبات وتدمير الممتلكات وهدر الأموال وتضييق المعايش وانتهاك الحرمات والاعتداء على الحريات فإذا ما استحثثنا هذا الأمر واستوعيناه وعياً قام سياجاً حمائياً يدعم مجهودات الأمن.

ولعلنا نضرب أمثلة لأهمية هذا الدور الوطني في صور ومشاهدات:

أولاً: نعرف جيداً أن أي جريمة لابد أن تمر بعدة مراحل ذهنية تبدأ بفكرة تختمر في الذهن ثم تنضج شيئاً فشيئاً يقتنع بها صاحبها ليخرجها من نطاقها الذهني إلى النطاق الخارجي فيبدأ

(١) رواه مسلم.

التحضير لها من خلال طلب أعوان أو إحضار وسائل ورسم خطة الشروع بتنفيذها فهو يعني أن الجريمة تبدأ فكرة ثم تتحول من طور فكري إلى طور فعلي. فمن يسمع عن فكرة شاذة تجول في ذهن شخص ما ويتكون لديه أدنى شك في سوء نواياه فعليه أن يشحذ همته ويراقب تطوراتها فإذا وجد ما يؤيد الاشتباه فعليه أن يسارع إلى إبلاغ السلطات التي ستتولى شأنه وهنا يكون هذا المواطن ساعد على كشف جريمة ربما كانت نتائجها مؤلمة من سفك دماء واعتداء على الآمنين وتخريب منشآت وتدمير مصالح وإشاعة فزع.

وصورة أخرى هب مثلاً أن فرداً أو فردين أو أكثر يتهامسون ويؤشرون على موقع ما مكتظ بالناس كالأسواق والمجمعات السكنية.. الخ يختلسون الجيئة والروحة يترقبون حولهم أليس في هذا ما يثير الشك أن هؤلاء ربما ينوون القيام بعملية إرهابية أو جريمة عنيفة أو يحاولون زرع قنبلة وعبوات ناسفة فإن كلمتهم آنست منهم جفاء وعدم قبول أو تجاهل أليس في هذا ما يعزز الشك ويدفعك إلى التبليغ عنهم للسطات. وكم من صورة يمكن القياس عليها.

فلو مررت بسيارة أوقفت على ناصية شارع ممنوع

الوقوف فيه ومررت أكثر من مرة وشاهدت أن هذه السيارة لم تبرح مكانها ثم حاولت الاقتراب منها وسمعت دقات ساعة أو شممت رائحة انبعاثات غازية أليس هذا مثار شك أن تكون السيارة مفخخة سيجري انفجارها لاحقاً فالتبليغ عنها فيه خدمة للوطن ومساندة لرجال الأمن لاحتواء الحدث قبل وقوع مصائبه.

وصورة من صور الاشتباه لو كان أحدنا يسير مسافراً على الطريق السريع ووقعت عيناه على مجموعة في الصحراء وحولهم سيارات يتربصون بالمارة أليس في هذا مدعاة للتشكيك في أنهم من الخلايا الإرهابية أو عصابات قطاع طرق مروعة تعودوا على سكنى الصحارى متوارين عن أعين الناس وهناك من الصور كثير وكثير. ببساطة نود أن نصل إلى أن على المواطن أن تكون عينه مفتوحة وأذنه صاغية لما يثير الشك والريبة لتفعيل حسه الأمني.

لكننا نؤكد ونزيد في التأكيد أن ليس كل ما يثير الشك هو بالتأكيد محل يقين وليس ما يريبك هو بالتأكيد حقيقة ولا ننسى أن الأصل في الأشياء البراءة إلا ما يقع موقع شك عليك تمحيصه مرة ومرتين وتمريره على قنوات الاختبار كي لا تقع في

مأزق أخذ الناس بالسرعة وعدم التحفظ فالشك له مبرراته والريبة لها معاييرها.

وضع نفسك مكان الآخر:

لما في ذلك من تجاوز على حرية الآخرين وليكن المؤمن كيس والكياسة لباقة وتلطف وفطنة فأجعل ما يبرر الشك عندك بالمقابل ما يبرر القطع به. فالأمر لابد أن يمر بمراحل تحليلية وبصيرة تصل فيها إلى استنتاج نهائي يعزز حالة الشك أو ينفيها فليس كل شك مرشح لأن يكون حقيقي فالأمر يختلف باختلاف الوضع النفسي للشخص فقد يتوهم أمراً مريباً من واقع خلجات النفس لا ترقى إلى درجة الثبات في نفسه أو ليس لها قوة الربط بين ما يثير الشك وبين الظواهر الماثلة فهذا الشك وهمي ليس له ما يعززه من شواهد حركية تربط بينها فبعضها تصدق تنبؤاتها لوجود ما يبرر الميل إليها تدفعه لسبر غورها وتمرير معلوماتها للجهات الأمنية لضبط خط سيرها وتتبعها ومعالجتها أمنياً فالمواطن خفير الوطن.

كل مواطن خفير:

عبارة تتردد كثيراً مغازيها بعيدة ومراميها عميقة فالمواطن يحرص على وطنه حرصه على نفسه. إنها أرض الوطن يحرسها

من كل سوء يلحق بها وقيم دواعي أمنها فريع سلامتها له ومردود أمنها إليه ومرجع استقرارها لخدمته وعافية وطنه يعود رجعها سلاماً في أرضه.

المواطن بهذا الحس مثله كمثل الطائر لا يأمن إلا في سربه فإن فارقه تاهت به السبل وتفرقت مسالكه يغرد خارج سربه خوفاً وفزعاً فهو بحسه يحافظ على أمن بلده الذي في نهاية المطاف ينعكس عليه فأمنه لا يتحقق إلا بأمن جماعة الوطن الذي هو جزء منه.

فالأمان استحقاق وحدوي والطمأنينة استقواء اتحادي في محتوى جماعي مع أفراده يحمل فكرهم ويتضامن معهم ضد كل ما يفسد حياتهم أو يشكل تهديداً لأمنهم يشرخ صفوفهم أو يصدع تماسكهم ويخدش حالهم أو يضر بمسيرة بقائهم.

فكل مواطن خفير تعني أن كل مواطن يعد نفسه خفيراً على وطنه ومقتنيات بلده وحارساً أميناً على مكاسبه لا يتباطأ أن يسخّر ملكاته طواعية في سبيل أمانه معاوناً سلطات بلده لأمن نفسه وتأمين نزله ومسترزقاته لتتضامن الإعدادات في صورة خفارة حارسة كونه خفير وطنه.

كل مواطن خفير تعني أن يتحارس الجميع ويتحاض

الأفراد لمجانبة مواطن الشبه يحض الفرد بدء بنفسه ثم إخوانه ثم الأقربون فالرفاق وجماعة العمل ومن شريحة لشريحة ينشرون فضيلة التناصح فالتناصح يعني إنكار المنكر وشجب التصرفات المنحرفة والسلوكيات المعوجة وفي هذا يرشدنا تعالي أن يتناهى المسلمون بعضهم بعضاً تذكيراً وتنبيهاً كمناعة ضد الوقوع في دوائر الانحراف. قال تعالى: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾[1].

وتعني أيضاً ألا يكون المواطن هاملاً غير عابئ بما يدور حوله فمتى شاهد شخصاً يعبث بمرفق حيوي أو يتجاوز حدود اللياقة والأدب أو يرتكب مخالفات أو ينشر إشاعات أو يساعد في بث مخاوف أو ينتهك حرمات أو من يعمل عملاً مخلاً بالذوق العام أو يعكر الأمان. أو يقيم علاقات مع أعداء وطنه أو يشارك في إساءة لبلده تلك وغيرها تدخل في معنى كل مواطن خفير والتي تقع على كاهل الأفراد فرداً فرداً مؤلفة في النهاية شعوراً عاماً في مضمونه يضحى الوطن تحت الأنظار المبصرة والقلوب المستبصرة فلا تغاضي عن الصغائر مهما

(١) سورة المائدة، الآية: ٧٩.

صغرت لجلب الانتباه إليها ولا تواكل بها أو حقرها قبل أن تتحول إلى ظواهر يصعب التدخل فيها.

وعندما نقول كل مواطن خفير فإن المدلول يدلنا آلياً إلى أن المرء حارس على بيئته وأمواله وأهله وشؤون حياته ليرقب ما يضر به أو يخترق صفاءه يستنهض مدركاته الظاهرة والباطنة بعينه الرقيبة وسمعه المرهف وملاحظاته الحسية لينصبها أداة من أدوات الرصد لأي حركات مشبوهة ونشاطات خفية يستظهر النوايا المبيتة ومن يتربص بالأمة سوءاً. ترصدهم العيون تحذر منهم الأفئدة المعقودة على الوطن لتضيق عليهم الخناق برفض أفكارهم ومؤدى توجهاتهم لتطويق مآربهم واستباق عملياتهم والمساعدة في كبح جماح أهوائهم تلك الخلايا السارية بالليل المستخفية بالنهار التي لم تعد خافية على المواطن الكيس باعتباره جزء على خارطة مسؤوليته الأمن الذي هو أحد عناصره يضطلع بدوره قسمة مع القوى الأمنية، فالأمن يبدأ منه وينتهي إليه فكل مواطن خفير مقولة تحمل فلسفة أمنية لابد أن يعيها المواطن مؤداها أن الأمن الفردي يفضي إلى الأمن الجماعي بحكم أن رجل الأمن الرسمي قد لا يكون متواجداً بالضرورة في كل شبر أو زاوية وفي كل ميدان وناحية أو تحت كل جدار

وناصية بينما المواطن متواجد غالباً في الأماكن المؤهلة يمارس حياته ويدير أعماله وينتشر في طلب رزقه آمناً بأمن الله يمشي في مناكبها ويسترزق من رزق الله في طول البلاد وعرضها، فلكي ينعم بنعمة الأمن يتوجب عليه أن يرعى هذه النعمة ليزرعها في دائرته التي هو أول حلقاتها لا تكتمل إلا إذا أحسن رعايتها وحافظ عليها مما يسوؤها فلم يعد الأمن مسؤولية الجهات الرسمية وحدها بل بات مسؤولية مشتركة بين المواطن وأجهزة الأمن يصون عهدها ويسترعى الآخرين خيراً بها سنداً فاعلاً لتحصيل الأمان فكلما كان فطناً للقيام بهذا الدور تأتي نتيجته أمناً وقائياً بإذن الله، فهذا يحرس ما في حوزته وذاك كذلك مكونين جبهة أمان جماعي في وتيرة الوطن ليضحى الأمن مظلة عامة يستظل بظلها الكل ويتداخل الجزء مع الجزء محتواها منظومة أمنية متناغمة قوامها مواطن ورجل أمن مما يفسر معنى كل مواطن خفير أي يحرص الفرد على تأمين مأواه وأن يوقى شح عطاء بلده ليحل له أمناً مبتغاً وسلاماً مرتجاً وبما أن الجميع في مركب الوطن حاذرون يحتم أن يكون المواطن خفير على بلده ويقع موقع الرقيب بحكم انتشاره على خريطته يستطيع أن يكون عنصر أمن فيما يجري حوله من مخالفات أو اخلالات

بالأمن والنظام العام وعين رقيبة لمنع جريمة تكاد أن تقع أو ما يثير الريبة من أعمال خارجة عن طابع المألوف العام قد لا يراها غيره فيبادر بالإحاطة بها وتسليم أمرها إلى جهات اختصاصها للجم صواخب الأزمات.فعندما يصبح المواطن واعياً لمسألة المشاركة الأمنية فذلك كفيل بتقليص فرص وقوع الجريمة والحد من انتشارها بإذن الله.

القسم الخامس

الشخصية الوطنية

الشخصية الوطنية

يجمع الباحثون وعلماء الاجتماع والأجناس البشرية على أن البيئة الجغرافية ذات تأثير قوي على الإنسان بما تحتويه تضاريسها وظروف مناخها تتشكل فيها أوضاع المعيشة والنشاطات الإنسانية وفي هذا يقرر مؤسس علم الاجتماع عبدالرحمن بن خلدون [1]، أن الاجتماع الإنساني من سمات البشر إذ الإنسان مدني بالطبع يؤثر ويتأثر فالشخصية تبدأ من الفرد كمكون فردي ومن الأفراد يتألف مكون مجموعي نوعي ثم من مجاميعها يتشكل مكون جماعي عام تلعب فيه البيئة الجغرافية دوراً تأثيرياً ذو صبغة خاصة يتسم بها أهل هذا الوطن أو ذاك من الأوطان تمنحهم لوناً مظهرياً خاصاً مستمداً من خصائص البيئة الجغرافية والشعبية تحدد صبغة الشخصية الوطنية من محاضنها الثلاثة:

١- **المحضن المكاني:** (أرض الوطن) ذلك الموقع الجغرافي الذي كان الموئل الابتدائي لنشأته مجموعة من الناس فيه اتخذوه مكاناً يحتضن سكناهم وتقلب حياتهم. تعلقوا به تعلقاً مكانياً

(١) مقدمة ابن خلدون.

متأثرين بطقوسه وتضاريسه وأنواء أجوائه مشكلة الشخصية الانطباعية للوطن وفقاً لمعطياته الجغرافية. شخصته تشخصاً انطباعياً مكانياً.

٢- **المحضن الزماني:** أي ما احتضن الزمن عبر طياته من موروث رصيد تاريخي توالى عبر الزمن شخصه تشخيصاً تراثياً ثقافياً. (عادات، تقاليد، أعراف، قيم، دين) أنمت الشخصية الثقافية للوطن.

٣- **محضن حضري:** تداخل تلك التأثيرات المكانية والموروثات الزمانية أفرزت حالة خاصة من تعايش متحاضر بفعل حضورهم الدائم على صعيد الأرض اصطلحوا فيه على نوعية حياتهم ووسائل معاشهم شخصته تشخيصاً حضرياً ولدت شخصية وطنية (تحاضرية). فبتوافق تشخيصات المحاضن الثلاثة، ارتسمت ملامح الشخصية الوطنية.

بذلك ندرك أن الشخصية الوطنية لأي بلد تختلف ملامحها عن ملامح بلد آخر بمعنى أن لكل وطن طابع خاص يلبسه على مواطنيه تغلب عليهم سماته تظهر في أسلوب تعاملاتهم وتصرفاتهم ومنشط حركتهم وطريقة تخاطبهم إذ يمكن أن تميز أكثر من شخص أو مجموعة من أي بلد هم أو

إقليم أو حتى على مستوى الإقليم الواحد فثمة فوارق بين ساكنيها نلمسها في نوعية ملامحهم الخلقية ولون البشرة والجبهة وما إلى ذلك من الفروق الطبيعية للأجناس البشرية. فلكل وطن طبعة مختلفة مثل: اللغة ولهجاتها، المظهر العام، اللباس الوطني، الفوارق الوصفية والحركية، ناهيك عن مراسم الاحتفالات الاعتيادية، التي تأتي مطبوعة بالطابع البلدي، مستوحاً من وعاء المحلية المشبع بالعادات والتقاليد والأعراف ضمن مجموع هذه الملامح أو بعضها يمكن تمييز هوية الوطن الذي يرجع إليه هذا الشخص أو تلك المجموعة.

فعندما تقابل أي إنسان لأول مرة تستطيع أن تلحظ تلك السمات التي تكون انطباعاً أولياً عن هويته فإنها بمثابة عناوين تصنف بموجبها هوية الشخص وإلى أي بلاد ينتمي.

وفي هذا السياق تكونت الشخصية الوطنية السعودية فمحيطها الصحراوي صنع منها شخصية قادرة على تحمل الصعاب والتعايش المرن مع بيئة الصحراء ومن بساطة الصحراء وصفائها اكتسبت الشخصية الوطنية السعودية معالمها مؤطرة بروح إيمانية مفعمة بطاقة روحانية في مجتمع سلم بقضاء العيش وقدر المعيشة صانعاً ملحمة إنسانية على الأرض من

خلفية موروث قيم وأصالة شعب يبث حباً وبشاشة تعاملية متوجة بسماحة دينه جعلته يحافظ على الشخصية الوطنية للمملكة العربية السعودية تأكد بها دورها الحضاري في التعايش السلمي مع الأمم لصنع الحضارات الإنسانية فالشخصية الوطنية لهذا البلد ظلت ومازالت منظور انفعال وتفاعل من وحي طبيعة الأرض محتفظة بخصوصية محضة استقتها من وصمها المحلى غير متأثرة بخصوصيات الغير أو صدى لها ولم تكن يوماً مرددة لمقولات تجديدية تطعم أصولها أو ترسم وشمات تغير أصل هويتها بدواعي عصرنه كما يراها المتعصرنون بل ظلت صامدة تصانع منطق العصر لتأخذ منه ما يلائمها وتجانب ما ليس من تصاميم محاضنها الأصلية.

أن خوض أي تجربة حضارية لأي أمة إنما تكون وفق محدودات خصوصية شخصيتها الوطنية التي كلما أمعنت في تأكيدها بات الوطن خيار لها ومن مكنونها برزت ملامح الشخصية الوطنية السعودية والتي من أبرزها:

- السماحة والبساطة.
- التمسك الشديد بتعاليم الدين الحنيف.
- الصدق في المعاملة.

- التمسك بوحدة الوطن.
- التلاحم القوي بين الإنسان والأرض.
- التراحم الإنساني والتعاطف الشعبي بين الإنسان وأخيه الإنسان.
- المحافظة على استحقاقات الوحدة الوطنية.
- التخلق بآداب الإسلام وقيم التعامل المختلقة بخلقه.
- التكافل الاجتماعي والشعور بشعور الغير.
- احترام حق الآخر والتواصي بالإخاء والتناصح بالبر والتقوى. والإفزاع لإغاثة المنكوبين ومساعدة المعوزين.
- الموازنة بين الأصالة والحداثة بما يوافق الدين وحميد الأخلاق.
- التعايش مع الغير واستيعاب حركة الزمن ولفظ ما لا يتوافق مع الدين والأخلاق.

ومما يزيد في إبراز ملامح الشخصية الوطنية لهذا البلد أنها مهما تعرضت لهزات الزمن تبقى صادمة في وجه الظروف لتثبت قدرتها على التعايش والتصدي للأزمات ولا يزيد

الإنسان على صعيدها إلا تمسكاً بأرضه واعتزازاً بأصالته وثقة بذاته فاكتسب قوة إرادة وصبر لتحدي الصعاب بفضل الله الذي أكسبه قوة مقاومة وصلابة مصابرة مما عبر عن رصيد ضخم من القدرة على التعايش والمضي قدماً لبناء حضارة أمته مشرعة بمنهج الله ثم بإرث قيمه التي منها استشفت الشخصية الوطنية مقوماتها الأساسية.

فكما لكل أرض خصوصيتها فتلك خصوصية أرضنا وطبعة بصمتها.

وخلاصة القول أن الشخصية الوطنية لأي بلد بوجه عام تختلف كاختلاف بصمات الأصابع يستحيل وضعها في قالب واحد. فمن خصوصية الوطن جاءت خصوصية الشخصية الوطنية عنواناً له كما هو الحال لأي بلد من بلدان معمورة الأرض.

إذاً الشخصية الوطنية هي معلم الوطن قانوناً ومعناً صدقاً وحقاً منها تنبثق الهوية الوطنية عنواناً لأبناء الوطن المنتمين إليه ومن معلم الوطن القانوني والمعنوي يلبس المواطن هويته يعرف بها ويحتمي وراءها يعامل ويتعامل منتخياً بها. فمن وحي كل تلك الصنائع تكونت حميمية روحانية ألبسته حيوية بقاء.

الوطن كائن حي

الوطن كالكائن الحي يحيا بحياة أبنائه وينبض بنبض أنفاسهم يتحرك بحراكهم صانعاً تكتلهم وتواؤمهم الاجتماعي يحضنهم في كل شبر من أرضه ليحضنوه في كل خلية من خلاياهم يحتويهم بالاهتمام ويحتووه بالرعاية يحتويهم ليحتووه هم أدواته للنهوض وهم آلياته للتطور هو محور دورانهم إصلاحاً لشأن فضاءاته.

فالوطن والإنسان دراعان متطابقان ينطبق أحدهما على الآخر متصلان لا يقوى طرف على البقاء دون طرفه الثاني فالأرض التي لا يقطنها إنسان ليست وطن ساكنه عن حراكها والإنسان الذي لا يقطن أرضاً ليس مواطناً يحييها الله بالإنسان ليعمرها لأنها المحتوى الذي يضمه ليجد فيها مقوم معاشه يغلب غلاها غلاه لا يجد طعم الحياة إلا في أرض يؤنس فيها مع قومه يتبادل معهم أسباب ومنافع الحياة ومصالح المعيشة بموجبها تأسس منشط تبادلي في حدود ما شرع الله وأبان رسوله ﷺ راسماً الطريق المستقيم إيماناً مطلقاً بالله رباً ومحمداً رسولاً والإسلام ديناً تطمئن به قلوبهم ليأمن المؤمن على نفسه

وأقواته مكرساً جهده للكد والعمل وكسب العيش في ظل أمن وارف ظلاله فإن أمن في موطنه أمن في ذاته وهو بدوره يؤمن غيره بمقتضى صيغة التبادل المنفعي المشترك وهكذا تتسع دائرة الطمأنينة في محيطه.

فمن لا يتوفر له موطناً آمناً هل يستطيع أن يمضي في طلب رزقه وتوفير قوته أو يمارس شعائر دينه أو يؤدي فرائض عبادته أو يتعامل تعاملاً متوافقاً مع غيره؟ فالأمن مظلته والقيم الإيمانية شرعته في تعاليمها أمان المعاملة بينه وبين من سواه التزاماً بالحقوق والوفاء بالعهود وضمان الحريات وعدم التعدي على الحرمات واحترام القوانين والمعايير الاجتماعية المنظمة للتعاملات الفردية والجماعية.

فعدم الغدر والأمانة والصدق والوفاء بالعقود والمواثيق ورد الأمانات والتسامح، صلة الرحم، الرفق بالضعيف والصغير والعاجز، تقدير الكبار، الكلمة الطيبة ولين الجانب ومساعدة المعسر والعاجز وعدم الفضاضة، الاستقامة والبعد عن مزالق الانحراف، التمسك بالآداب العامة، حقوق الوالدين احترام الغير وغيرها.. الخ. مما كفلها الدين وصانتها القوانين والأنظمة.

تلك مفردات أخلاقيات التعامل بين الأفراد والجماعات تمثل مقاصد الاستخلاف في الأرض.

إذ أن مبادئ الإسلام تحول بين الإنسان والبغي والعدوان فالمؤمن في مراقبة دائمة لنفسه في السر والعلن من شأنها أن تنشئ تواءماً بين الناس وتقوم الثقة بين بعضهم بعضاً ويسود الوئام الاجتماعي ومن منطلق الأثر الإسلامي وتكريس مبادئه تتجذر معاني الأمن في الوطن الذي يؤمن له سكوناً مرتضى وسكناً مأمناً في ربوعه وعيشاً هنيئاً ورزقاً مريئاً موفوراً بإذن الله يشفق أحدهم بالآخر بحكم قناعة الأحكام بثواب الدين وقوانين المجتمع المسلم يورث استقراراً على المستوى الفكري والاجتماعي والاقتصادي والسياسي. أسست حالة توافقية على أرض الوطن استدعتها قناعات وأئمت الوضع الحياتي:

القناعة الأولى:

إن هناك تمازج وثيق بين معطى الأرض بخيراتها وإرادة الإنسان لاستثمار مخرجاتها لتلبية حيثيات عيشه عليها.

القناعة الثانية:

إن العلاقة التي قامت بين الأرض والإنسان مردها عمق التعلق بها والبعد الزمني الذي يحمل في طياته موروث ثقافتها

متجذرة بجذور التربة تلائم معها الإنسان لصنع حاضره على أرض وطنه.

القناعة الثالثة:

الجبلة الوطنية أو لنقل كيمياء الوطن (إن جاز التعبير) وهي عملية جذب تجذب الإنسان لتربة وطنه التي أنبته الله منها يؤيد هذا قول الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾﴾[1].

فالتجاذب بين الأرض والإنسان يبرر عمق التصاق بين الطرفين جعل الوطن مغروس غرساً غائراً في الوجدان.

القناعة الرابعة:

الارتباط الإيماني بين الفرد وخالقه قام به جو الأمن والسكينة على هذه الأرض مستلهماً أن الأمن وريث الإيمان الذي تسكن به القلوب ويلوذ به البشر راكنة إلى مهاجها تهب إلى مناشطها آمنة مطمئنة مرتدية رداء الأمان النفسي والمعيشي طالما كان الإيمان رائدها.

---

(١) سورة نوح، الآية: ١٧.

القناعة الخامسة:

بما أن أرض الوطن ملاذ إقامة للمواطن منحه الله إياها ليعبده عليها في ظل أمانه فهي مبعث طمأنينة تدفع بالإنسان إلى التفاني لبقاء أمنه مستتباً وحاله مستقراً وعيشه ميسراً هادئاً.

فمن يسر لك قوام بقاءك ومن وفر لك أمانك غير الله ومن هيأ الأقوات وسبل الاسترزاق غير الله فهو مدبر الكون سهل ما استصعب ويسر ما استعصى تستقيم به حركة حياتك وسخر أسباب عيشك وسوى الأرض وسلك فجاجها وأمدك بأموال وبنين وأصلح حالك وأنزل من السماء ماء يخرج به ألوان شتى من الثمرات لسد جوعك وأمن روعك وأقوى قواك أليس الله الذي أوجد وطنك وأوجدك فيه فكنت امتداد للآباء والآباء سلالة الأجداد الذين استخلفهم الله في الأرض فكلفهم عمارتها فأقاموا فيها وتكيفوا مع أحوالها وفق تعامل أخلاقي وتراحم متآزر فجعل الله جمعهم قوة تحدى لمشاق الحياة فبروا أرضهم يتشاركون همومها ويتضامنون لنجدتها وإعمارها ويخلدون إليها هو الوطن يحيا بحياة أبنائه ويستغلظ بهم قوامه والمواطن لا يأنس أو يستأنس إلا في حضنه.

إنه الوطن هو لك ملاذاً وأنت رداء.

إنه الوطن أنت فيه فاعل وهو بك مفعول.

إنه الوطن أنت نقطة نونه وهو نقطة نونك.

فالنون رابط مشترك بين القطبين لترسمه نوناً في عين هامة الزمن وشامة على خد العصور وجبهة الدهور.

وجدانيات مواطنيه تتّردد على الألسن

- نحن الوطن – الوطن نحن.
- الوطن بنا – نحن به.
- في ربوع الوطن يطيب المقام.
- الوطن أنا، أنت، هو، هي، نحن داخله، هو داخلنا.
- نعيش في آفاقه وآفاقه تعيش فينا، لسان الحال يقول.
- أنا الوطن والوطن أنا.
- الوطن كائن نابض ينبض بنبض مواطنيه.
- الوطن كائن يتنفس هواء ناسه، فأنت بالوطن والوطن بك.
- الوطن تاج على الهامات.
- الوطن أصالة تراث وسجل تاريخ سطر صفحاته الأجداد قرأها الآباء يتلوها الأنباء.
- داخلنا يتربع الوطن على عرش القلوب.
- الوطن شعور أمان وسلام. أمنه غاية وسلامته هدف.
- أمننا في حسنا، فالحس اليقظان أمان البلدان.
- الحس الأمني ترجمان الحس الوطني.

- الوطن الذي يفتقد حس مواطنيه تئن مواجعه.
- المواطن المحب لوطنه حفيظ على أمنه.
- المواطن الموالي لوطنه غيور عليه، فلا خير في مواطن لا غيرة فيه لموطنه.

هناك عبارة عفوية درج البعض على ترديدها تنبئ عن شعور بالفردية والانزوائية لا تعبر عن صدق مواطنيه ولا تحاكي وجدانياتها، تلك التي درجت على الألسن تقال ببرود القول تحملها عشوائية مجافيه للوطن.

إنها عبارة – أنا مالي – أي كأن قائلها يتبرأ من مسؤوليته تجاه الوطن أو لا يخصه شأن الوطن. إذا ما شاهد عبث سلوكي أو تصرف لا أخلاقي أو فعل غير مبالي يجر إذى أو يضار به الوطن ومكتسباته ومصالحه ومرافقه، فإن قلت أنا مالي، ورددتها معك، فكيف يا ترى تتحقق آمالك وآمالي، فالآمال لن تتحقق إلا بالإجماع والمنعة لا تقوم إلا بتكاتف الأكف.

فنحن أمة لا تفرق بينها، يجمعها إله واحد، دين واحد، نبي خاتم، شعب واحد، طموح واحد مستقر واحد نستشعر مستقبل واحد صف واحد وطن واحد مصيرنا فيه واحد، شعورنا واحد أمل واعد صمود داحض لمثبطات الهمم. عزائم وذمم إباء وشمم صبيان وصبيات هم طاقاته وقواعد انطلاقاته. دعونا معاً نردد ونعيد ونكرر سمفونية الوطن:

يـا هـذا الـوطن كـم في لـك مـن شـجن

فورب السماء والشجر لافدينك بروحـي بـلا وهـن

- الوطن ملاذ سكن، استكانة نفس، مرد روح.
- الوطن هاجسه الفوائد، قـراره القلـب، تجمعنـا عليـه كلمة حبه والتضحية من أجله وتفعيل أواصر علائقـه ترخص الأرواح دونه.

لا مكان للفرقة فيه، جمعة صلب تماسكه صلد صموده فذ لا نوالي من لا يوالي الله فيـه ولا نتقهقـر ونوليـه الأدبـار يـوم يدعو الداعي فالكل إليه سواعي اللهم يا من بسط أرض الوطن وأمددتها بمعين النعيم وحللتنا إحلال أمـين ومهـدت لنـا سـبلنا ومسترزقاتنا وهديتنا صراطك المستقيم أرشدنا إليه مـن أرسـلته رحمة للعالمين.

أحفظ بلاد المسلمين قاطبة يا رب العالمين. وصـلى اللـهم على خير خلقك. ومن أستن بسنته وأتبع هداه... آمين

الخاتمة

لم تظهر خلافات بين المفكرين على مسألة موالاة الأوطان بل اتفقت الشعوب على مختلف مشاربها الثقافية على الالتصاق بأرضها تعبيراً عن شغف بحب الديار والذود عنها وأتباعها تبعية هوية مختومة بختم الأرض وأهلها ينتمي إليها باعتباره نسيج فتح ناظريه في رحابه متحركاً في فضائه ارتبط به ارتباطاً عضوياً فرض عليه التزامات أدبية بمضامين اجتماعية فيما يتمتع به من حقوق يقابلها واجبات امتلتها فرائض المواطنة التي تألفت من ذات الأبعاد التي يتشكل منها الوطن.

- بعداً جغرافياً حدد ارتباط الإنسان بالأرض.
- بعداً اجتماعياً بفعل وحدة التواطن على الأرض.
- بعداً انتمائياً بحكم الانتماء إلى الأرض جعل الفرد مطبوع بطابع بلده العام.
- بعداً تاريخياً وموروثاً ثقافياً.

بررت ارتباط الإنسان بوطنه سنة كونية إذ لابد له ومؤدي بؤيه ومستقر يلوذ به مستئنساً بمن يتقاسم معهم العيش عليها على فرض ما قرر أصحاب الفكر الاجتماعي من أن الإنسان

مدني بالطبع أسس فيه غريزة الميل الاجتماعي لبني جنسه قامت بينهم عهود محترمة ومواثيق ملزمة بررت نشوء علاقة قوية استحدث متانتها من تلك الأبعاد، فالأرض سميت وطن – والإنسان سمي مواطن – والعلاقة الرابطة بينهما سميت وطنية – فأضحت مرصوفاً له معاييره ومواثيقه مؤطرة بشرعية الدين ومبصومة ببصمة الأرض – معززة بتراث وتاريخ: انها الوطنية آلية ربط بين إنسان ووطنه وإنسان وإنسان نقطة التقاء حول مضمونها مكونات الوطن.

وهنا ركزت عليها من منطلقات إيمانية وعرفية وقيم إسلامية لا مشّرقاً بها ولا مغّرباً مستدلاً فيما قال الله وقال رسول الله ﷺ بقدر ما استطعت فإن أحسنت فبتوفيق الله وإن أسأت فهو من الشيطان.

والله هو المولى ونعم النصير،،،

المراجع

١- القرآن الكريم.

٢- السنة النبوية – الصحاح.

٣- تفسير ابن كثير – القرطبي.

٤- حقوق الإنسان، [redacted] البقمي ناصر، الرياض، ١٤٢٩هـ.

٥- المواطنة وتطبيقاتها في المملكة العربية السعودية، د/ احسان محمد، دار الشبل، الرياض، ١٤١٦هـ.

٦- منطق السلطة، ناصف نصار، دار الأمواج، بيروت، لبنان.

٧- الأمن والإعلام، الياسين، عبدالرحمن، دار طويق، الرياض.

٨- مقدمة ابن خلدون.

٩- جريدة الجزيرة السعودية.

الفهرس

الإهداء	٥
المقدمة	٧
القسم الأول: موالاة الوطن	
موالاة الوطن	١٣
إذكاء موالاة الوطن	١٨
القسم الثاني: المواطنة أم الوطنية	
المواطنة – أم الوطنية	٢٩
مضمون حب الوطن	٥٨
المواطنة والأمن	٦٨
أجهزة الأمن	٦٩
المجتمع	٧٠
المنظور الإسلامي للمواطنة	٧٣
القسم الثالث: صفة الانتماء للوطن	
صفة الانتماء للوطن	٨١
التربية الوطنية	٨٣
القسم الرابع: الحس الوطني	
الحس الوطني	٩٣

الحس الأمني	٩٨
تنشيط ملكة الحس الأمني	١٠٢
ما أهمية الحس الأمني في حياة المجتمع	١٠٥
كل مواطن خفير	١١٢
القسم الخامس: الشخصية الوطنية	
الشخصية الوطنية	١٢١
الوطن كائن حي	١٢٧
وجدانيات وطنية	١٣٣
الخاتمة	١٣٦
المراجع	١٣٨
الفهرس	١٣٩